حياة القلوب

تفسير كلام علام الغيوب

الجزءُ الثَّالثَ عَشَرَ

تأليف

أبي عمرو سعيد بن مصطفى دياب

مُقَدِّمَة

إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُه، ونستعينُه، ونستغفرُهُ، ونعوذُ به مِن شُرُورِ أنفُسِنَا، وَمِنْ سيئاتِ أعْمَالِنا، مَنْ يَهْدِه الله فَلا مُضِلَّ لَهُ، ومن يُضْلِلْ، فَلا هَادِي لَهُ.

وأَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبْدُه ورَسُولُه.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.[1]

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.[2]

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.[3]

وبعد فهذا هو الجزء الثالث عشر من تفسير: (حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عَلَّامِ الْغُيُوبِ)، أسأل الله أن ينفع به، وأن يجعله خالصًا لوجهه، وأن يتقبله بفضله ومنه وكرمه.

---

١ – سورة آل عمران: الآية/ ١٠٢

٢ – سورة النساء: الآية/ ١

٣ – سورة الأحزاب: الآية/ ٧٠، ٧١

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. سورة يوسف: الآية/ ٥٣- ٥٥

أي: من الخطأ والزلل فأزكيها، أي: قالت هنا وقد حقت الحقائق، وذهبت عنها سورة الغضب، ونشوة الشهوة: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾، تعني الآن كما برأت نفسي من قبل ورميت يوسف بما ليس فيه، وقلت فيه ما هو منه بريء.

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾.

لما أقرت امرأة العزيز بما كان منها من المراودة، بينت أنها إنما فعلت ذلك لما اعتراها من الضعف البشري الذي تمكن منها لشدة محبتها ليوسف عليه السلام، فاستجابت لنفسها التي أمرتها بالسوء؛ كما هو شأن أكثر بني آدم إذا غلبت الشهوة؛ كما قيل:

والنَّفْسُ راغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَها ***** وإِذَا تُرَدُّ إِلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾.

أي: إلا ما رحمه الله من النفوس فعصمه من ذلك.

وقيل: الاستثناء منقطع أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: إن ربي واسع المغفرة، فيغفر للعباد ما يكون من النفوس بمقتضى طباعها، رحيم بهم لعلمهم بضعفهم أمام شهوات نفوسهم.

﴿وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾.

أي: وقال الملك حين تبينت له براءة يوسف، وظهر له من حكمته، ورجاحة عقله، وكمال أدبه: أأتوني به أجعله خالصًا لنفسي، لا يشاركني فيه أحد.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

فلما كلمه الملك ظهر له من رجاحة عقل يوسف ومن حكمته أضعاف ما كان يظنه، فقال له: إنك اليوم عندنا قريبُ المكانة موفور الأمانة.

﴿قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: قال يوسف: ولني على خزائن البلاد، ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو قدرة على حفظ ثروات البلاد، وغلالها، وذو علم وبصر بما يصلح البلاد والعباد، وعلم يوسف عليه السلام أنه لن يقوم بالأمر أحد مثله، ويجوز للرجل أن يمدح نفسه إذا جُهِلَ أمرُهُ للحاجة.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾. سورة يوسف: الآية/ ٥٦-٦٠

أي: ومثل ذلك التمكين الذي جعله الله تعالى ليوسف عليه السلام في قلب الملك، مكن الله تعالى له في أرض مصر، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ﴾؛ أي: ينزل منها في أي مكان يشاء، في عيش رغيد، وجاه عريض، وأصل التبوء: من المباءة: وهي منزل القوم في كل موضع.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ﴾.

أي: أمنح فضلي وعطائي من أشاء من عبادي.

قال ابن عباس: أتفضل على من أشاء برحمتي.

﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: ولا يضيع عند الله تعالى ثواب من بلغ مرتبة الإحسان في اعتقاده، وعبادته، وأخلاقه.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾.

أي: وما أعده الله تعالى من الثواب في الآخرة من الجنَّة ونعيمها خيرٌ للَّذين آمنوا واتَّقوا معاصي الله تعالى.

﴿وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾.

في الكلام حذف اختصار تقدير فتولى يوسف على أمر البلاد فقام عليها أتم قيام، فلما انقضت سنوات الخصب وجاء الجدب، واشتد بالناس القحط، وعم البلاد وما حولها، جاء أخوة يوسف من أرض كنعان يطلبون الميرة، فدخلوا على يوسف فعرفهم ولم يفطنوا له لطول العهد، وتغير الهيئة، واختلاف الحال.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾.

وكان يسأل من أتاه طلبًا للميرة عمن خلفوه وراءهم من الأهل، ولا يعطي أحدًا أكثر من حمل بعير لكل واحد ممن خلفوه لعذر كمرض أو كبر سنٍّ، فلما أخبروه أن لهم أخًا من أبيهم خلفوه بأرضهم، ولما جهزهم بجهازهم وكال لهم نصيبهم من الميرة، أمرهم بإحضاره معهم، ورغبهم على ذلك بما يرونه منه من إيفاء الكيل، وكرم الوفادة.

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾.

فإن لم تأتوني به فهو دليل كذبكم وخداعكم، وإذا كان كذلك فليس لواحد منكم كيلٌ ولا أسمح لكم بالدخول علي.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ (٦١) وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يَا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ٦١- ٦٣

ولما جهز يوسف عليه السلام إخوته بجهزهم، وأعطاهم نصيبهم من الميرة وقال لهم: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾، فقد زعمتم أن لكم أخًا من أبيكم لأعطيه نصيبه من الميرة، قالُوا: ﴿سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ﴾، أي: سنطلب من أبيه أن يرسله معنا ونحتال في ذلك، ﴿وَإِنَّا لَفاعِلُونَ﴾، أي: لضامنون أن نأتي به.

﴿وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَقالَ لِفِتْيانِهِ﴾، ﴿وَقالَ لِفِتْيَتِهِ﴾ قراءتان متواترتان، فتيان وفتية جمع فتى، أي: وقال يوسف لغلمانه الكيالين: ﴿اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ﴾، أي: اجعلوا بضاعتهم التي جاءوا بها في أوعيتهم، قال الواحدي: الرحل كل شيء معد للرحيل من وعاء للمتاع ومركب للبعير ومجلس ورسن.

وقال ابن الأنباري: يقال للوعاء رحل وللبيت رحل.

وكان قد أوهمهم أنه لن يعطيهم الميرة لأخيهم حتى يأتوا به، فأعطاهم البدلين.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: لعلهم يعرفون حق ردها وحق التكرم عليهم بإعطائها لهم، ﴿إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ﴾ إذا رجعوا إلى أهلهم وحطوا رحالهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا بأخيهم طلبًا للميرة، وطمعًا في العطاء.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يَا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾.

أي: فلما عادوا إلى أبيهم يعقوب عليه السلام، قالوا: ﴿يَا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾، أي: كيل أخينا لأنا لم نأخذه معنا، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾، أي: أرسله معنا لئلا نُمْنَعُ كيله كما منعناه هذه المرة، وسوف نحافظ عليه ونضمن رجوعه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَاّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يَا أَبانا مَا نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَاّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾. سورة يوسف: الآية/ ٦٢-٦٦

أي: قال لهم أبوهم: كيف آمنكم عليه وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم؟

وهو استفهامٌ بمعنى النَّفي؛ أي: لا أثق في حفظكم له، وإنْ قلْتُم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، فقد كنتم قلْتُم في أخيه يوسف من قبل ثم فرطتم فيه.

قرأ حمزة والكسائيُّ وعاصم في رواية حفص: ﴿حَافِظًا﴾ قيل: على التمييز؛ كقوله: هو خيرهم رجلاً، ولله درّه فارسًا، وقيل: على الحال، وقرأ الباقون: ﴿حِفْظًا﴾ على التَّفسير والمعنى: خير حفظًا من حفظكم.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

فأرجو أن يمن عليّ بحفظه، ولا يفجعني بفقده، كما فقدت أخاه، ولا يجمع عليّ مصيبتين، وهو منه ميل بالإذن لهم لكن ليس فيه تصريحًا لهم بالإذن والإرسال.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾.

أي: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم التي أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم رُدَّت إليهم.

﴿قالُوا يَا أَبانا مَا نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا﴾.

فلما وجدوا بضاعتهم في متاعهم ﴿قالُوا يَا أَبانا مَا نَبْغِي﴾؛ أي: ماذا نريد بعد هذا؟ لما رأوه من الإحسان بهم، ﴿هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا﴾؛ أي: عاملنا بالفضل والإحسان وردَّ إلينا بضاعتنا من حيث لا نشعر.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾.

أي: ونجلُب إليهم الطعامَ من مصر، ﴿وَنَحْفَظُ أَخانا﴾، من المكاره لننال رضاك، ﴿وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾، يعني إذا أخذنا أخانا معنا، ﴿ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾؛ أي: هين سهل فقد وعدنا به العزيز إذا قدمنا بأخينا.

﴿قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَاّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ﴾.

يعني: بعدما رأيت منكم ما رأيت، حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله؛ أي: تحلفوا لي بالله لتأتنني به، ﴿إِلَاّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ﴾؛ أي: إلا أن تنزل بكم جميعًا نازلة، لا تخص واحدًا دون غيره.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

أي: فلما حلفوا به وأعطوه العهود والمواثيق قال: الله على ما نقول شهيد ورقيب ومطلع.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ٦٧، ٦٨

لما أخذ يعقوب عليه السلام من بنيه الميثاق على حفظ بنيامين وأن يأتوه به إلا أن يحاط بهم، قال لبنيه وكانوا أحد عشر لما أرادُوا الخروج من عنده إلى مصر ليمتاروا الطعام: ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾؛ أي: لا تدخلوا مصر من بابٍ واحد، وادخلوا من أبواب متفرقة.

قال ابن عباسٍ: رهب يعقوب عليه السلام عليهم العينَ. وكذا قال الضحاك، والسدي، ومحمد بن كعب.

وقال قتادة: خشي نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم العينَ على بنيه، كانوا ذوي صُورة وجَمال.

وقال ابن إسحاق: خشي عليهم أعين الناس، لهيأتهم، وأنهم لرجل واحدٍ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «الْعَيْنُ حَقٌّ».[1]

﴿وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

يقول وما أملك أن أدفع عنك ضرًّا أراده الله بكم، فإنه لا مفر من قضاء الله وقدره.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

إن هنا نافية، والمعنى: ليس لأحد مع الله تعالى حكم، فإنه لا رادَّ لأمر الله، ولا معقب لحكمه، وإنما أتوكل على الله تعالى، والتوكل: صدق اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب، وكذا يجب على كل مؤمن أن يتوكل على الله تعالى.

١ - رواه البخاري-كِتَابُ الطِّبِّ، بَابٌ: الْعَيْنُ حَقٌّ، حديث رقم: ٥٧٤٠، ومسلم- كِتَابُ السَّلَامِ، بَابُ الطِّبِّ وَالْمَرَضِ وَالرُّقَى، حديث رقم: ٢١٨٧

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَاّ حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولما دخلوا من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم، ما كان يغني عنهم رأي أبيهم شيئًا، أو دخولهم من أبواب متفرقة، فإنه لا يغني حذر من قدر، فلو قدر الله تعالى عليهم مكروهًا لأصابهم لا محالة.

﴿إِلَاّ حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها﴾.

استثناء منقطع، والمعنى: ولكن حاجة كانت في نفس يعقوب وهي شفقته عليهم ومحبته لسلامتهم هي التي جعلته يوصيهم بألا يدخلوا من باب واحد، وهو يعلم أن قدر الله نافذ لا محالة.

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: وإن يعقوب لذو علم جليلٍ من أجل ما علمناه بالوحي، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ما يجب عليهم اعتقاده، وما ينبغي أن يدينوا لله تعالى به.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (٧٠) قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ (٧٣) قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (٧٤) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ٦٩، ٧٥

أي: وَلَمَّا دَخَل إخوة يُوسُفَ عليه آوى يوسف إِلَيْهِ أَخاهُ بنيامين، وكان أخاه لأبيه وأمه، وضمه إليه وأنزله معه، قال ابن قتيبة: يقال: آويتُ فلاناً إِليَّ، بمد الألف إِذا ضممتَه إِليك. قلت ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا».[1]

أي: ضمه إليه ونصره.

﴿قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فلما اختلى يوسف بأخيه أطلعه على شأنه وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: ﴿أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لا تحزن ولا تأسف على ما يعملونه من الكيد، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وبين له أنه سيحتال على أن يبقيه عنده مكرّمًا.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾.

فلما قضى لهم حاجتهم ووفَّاهُم كيلهم جعل السِّقايَةَ وهو إناء كان يشرب فيه وقيل: إناء يكيل به الطعام، وجده في رحل أخيه.

١ - رواه البخاري- أبواب فضائل المدينة، بابُ حَرَمِ المدِينَةِ، حديث رقم: ١٨٧٠، ومسلم- كِتَابُ الْأَضَاحِيِّ، بَابُ تَحْرِيمِ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى وَلَعْنِ فَاعِلِهِ، حديث رقم: ١٩٧٨

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾.

الأذان: إعلام بقول يُسمع بالآذان؛ أي: ثم نادى منادٍ، قائلاً: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾، العير: القافلة، ومنه المثل: لا في العير ولا في النفير، والعير في الأصل: اسم لما امتير عليه من الإبل والحمير والبغال؛ وسميت لأنها تَعِيرُ؛ أي: تجيء وتذهب.

﴿قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾.

أي: قال إخوة يوسف عليه السلام وقد أقبلوا على طالبي السقاية بوجوههم ثقة منهم ببراءة ساحتهم: مَا الذي تَفْقِدُونَه؟

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قالُوا نَفْقِدُ صُـــواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنا لِنُفْسِـــدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا ســـارِقِينَ (٧٣) قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (٧٤) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ٧٢- ٧٥

﴿قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾.

أي: قالوا نفقد مكيالَ الملك، وهو السقاية المذكورةُ، ﴿وَلِمَنْ جاءَ بِهِ﴾، قبل البحث في أمتعتكم ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، جُعلًا، مقداره وَسْقُ من طعام، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾؛ أي: وأنا كفيلٌ أن أؤديهِ إلى مَن ردَّه.

﴿قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ﴾.

(تَاللَّهِ) قسمٌ فيه معنى التعجب مما نسب إليهم من السرقة، حلفوا على أمرين: الأول: على أنهم ما جاءوا لأجل الفساد في الأرض؛ لأنه ظهر من أحوالهم التعفف عن أموال الناس فلم تمتد أيديهم إلى أموال الناس، ولا أرسلوا دوابهم ترعى في مزارع الناس، والثاني: أنهم ما عرفوا بالسرقة قبل تلك الحادثة، فهم أبعد الناس عن التهمة.

﴿قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ﴾.

قالوا فما جزاؤه على سرقته إِن كُنتُمْ كاذبين في ادعاؤكم البراءة منه؟

﴿قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

قالوا: جزاء السارق إن وجد في رحله صواع الملك أن يستعبد، ويؤخذ في السرقة ويسلم بسرقته إلى المسروق منه فيسترقه، ﴿كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، يعني مثل هذا الجزاء وهو أن يسترقّ السارق نجزي الظالمين.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ مَا كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَاّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ٧٦، ٧٧

فَبَدَأَ يوسف في التفتيش ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فجعل يفتشها وعاءً وعاءً لإزالة التهمة، قال المفسرون: ولما فتش أوعيتهم ولم يبق إلا رحل بنيامين، قال يوسف: ما أظن هذا أخذ شيئًا، فقال إخوته: والله لا نبرح حتى تنظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك. فلما فتح متاعه استخرج الصاع منه.

﴿كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ﴾.

أي: قال الله تعالى ألهمنا يوسف أن يجعل السقاية في رحل أخيه ليتوصل به إلى حبسه عنده، واستبقائه معه.

﴿مَا كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَاّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ﴾.

ما كان يوسُفُ لِيَأْخُذَ أخاه في مِلِكِ مَلِكِ مصرَ وقضائِه وطاعتِه منهم، وما كان له أن يفعل ذلك إلا بتدبير الله تعالى له، ويطلق الدين ويراد به عدة معانٍ تقدم ذكرها ومنها المِلْكُ كما في هذه الآية.

﴿نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: نَرْفَعُ من نشاءُ درجاتٍ في العلمِ، كما رفعنا يوسف عليه السلام، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾،

قال ابن عباس: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كلّ عالم، قال قتادة والحسن: والله ما من عالم على ظهر الأرض إلّا فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله الذي علّمه ومنه بدأ وإليه يعود.

﴿قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

قالُوا: إنْ سَرَقَ هذا الأخُ فقد سرق أخٌ له مِن قبلُ، يقصدون يوسف عليه السلام، وهذا الذي قالوه من افترائهم على يوسف عليه السلام، لما يضمرونه ليوسف عليه السلام من الكراهية، ولا داعي لتلك التأويلات التي ذكرها بعض المفسرين تصديقًا لقولهم، وإقرارًا لهم على ادعائهم الباطل.

﴿فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ﴾.

أي: فأضمر يوسف في نفسه تلك الفرية ولم يُظهرْها لهم ولم يقلْ: أنا يوسفُ وما سرقْتُ قطُّ، فلِمَ كذبْتُم عليَّ؟ ثم قال لهم أنتم شرٌّ مكانًا والله أعلم بما تذكرونه من نسبة أخيه للسرقة أكان ذلك حقًّا أم باطلًا.

وقيل: هذا من باب الإضمار قبل الذكر، أي: أضمر يوسف في نفسه: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ﴾، ومنه قول الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر ***** وحسن فعل كما يُجزي سنمّار

قال ابن عباس: ﴿فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾، قال: أَسَرَّ في نفسِهِ: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ﴾.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ٧٨، ٨٠

قال إخوة يوسف له لما هم بأخذ أخيه: ﴿يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً﴾، شديد الحب له، لا يتحمل فراقه، ﴿فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ﴾، بجريرته فإن نفوسنا تطيب بذلك.

﴿إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فقد أكرمت وفادتنا عليك، وأوفيت لنا الكيل، ورددت إلينا بضاعتنا، فلا تقطع عنا إحسانك، ولا تغير فينا عادتك.

﴿قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ﴾.

أي: قال نعوذ بالله أن نأخذ بريئًا بغير جريرة، ونترك من وجدنا السقاية في رحله، فإن فعلنا فقد ظلمناه.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾.

فلما انقطع رجاؤهم في تخليص أخيهم، وأن يُجيبَهم يوسف إلى ما سألَوه، انفردوا عن الناس واعتزلوهم لا يخالطهم سواهم، متناجين فيما بينهم، و﴿نَجِيًّا﴾، مصدرٌ في الأصل؛ يصلح للواحد كما في قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، وللجمع كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾. [الإسراء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾.[1]

١ – سورة المجادلة: الآية/ ٧

﴿قالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾.

قيل: هو الذي نهاهم عن قتل يوسف، وأشار عليهم بإلقائه في البئر، قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً﴾، أن تأتوه به إلا أن يحاط بكم، ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾، ومن قبل هذا تعلمون ما بدر منكم من تفريطكم في يوسف، ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ﴾.

فلن أفارق أرض مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾، في الرجوع، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾، بالخروج من مصر، أو بخلاص أخي، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ﴾.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَما شَهِدْنا إِلَاّ بِما عَلِمْنا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (٨١) وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ (٨٢) قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يَا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾. سورة يوسف: الآية/ ٨١- ٨٤

أي: قال كبيرهم: الذي عزم على الإقامة بمصر لإخوته الباقين: ﴿ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾، يعني: شقيق يوسف، ﴿وَما شَهِدْنا إِلَاّ بِما عَلِمْنا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾، يعني: مِن ظاهر الأمرِ بوجود المسروق في رحلِه، فقد رأينا إخراج الصاع من متاعه.

﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾.

في الكلام حذف اختصار تقديره: وَاسْأَلِ أهلَ القريةِ....، وَاسْأَلِ أهلَ الْعِيرِ.... وأضمرَ أهلَ لدلالة السياق عليها، ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾، فيما نخبرُكَ به من شأن السرقة.

﴿قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾.

السول: ما يتمناه الإنسان ويحرص عليه، قال لهم أبوهم: بل زينت لكم أنفسكم أمرًا دبرتموه بليل، كما فعلتم بيوسف.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

فصبري صبرٌ جميل، وهو الصبر الذي لا شكوى فيه، ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾، أي: بيوسف وأخيه الشقيق، وكبير الأخوة الذي ظل بمصر حتى يأذن له أبوه، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: العَلِيمُ بحالي وحالهم، الحَكِيمُ في تدبيره، وأفعاله، وتقديره.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يَا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

أي: وأعرض عن بنيه، وتذكر يوسف وفقده، وجدد له الحزن على فقد ابنه الثاني حزنه القديم الأول على يوسف فقال: ﴿يَا أَسَفى عَلى يُوسُفَ﴾، والأسف: شدة الحزن، وبكى واشتد بكاؤه عليهما حتى ابيضت عيناه، وذهب بصره، وبلغ به الحزن مبلغًا عظيمًا، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، يعني وهو مع ذلك كاتم حزنَه لا يظهِرُه، ولا يشتكي إلا لله تعالى.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (٨٥) قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ٨٥، ٨٦

أي: قالوا تاللَّهِ لا تَزالُ تَذْكُرُ يوسفَ، لا تفتر من حبه، وأصل: ﴿تَفْتَؤُا﴾ لا تفتأُ، وحُذفَتْ (لا) من (تفتأ) لأنَّه جوابُ القسم المنفيّ، ولا تَلتبِس بالإثبات؛ ولو كان إثباتًا بعد القسم لقيل: لتَفْتأنَّ؛ إذ لا بد في الإثبات من اللام والنون.

قال امرؤُ القيس :

فقلْتُ يمينُ اللَّهِ أبرَحُ قاعدًا ***** ولو قطَّعوا رأسي لدَيْكِ وأوصالي

﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾.

أي: حتى تمرض مرضًا تصير به مشرِفًا على الهلاك، وأصلُ الحَرَضِ: فسادُ العقل والجسم مِن الحزن والحبِّ،

وقال العَرْجيُّ :

إنِّي امرؤٌ لجَّ بي حبٌّ فأَحْرَضَنِي ***** حتَّى بَلِيْتُ وحتَّى شَفَّنِي السَّقَمُ

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ﴾.

أو يكون سببًا في موتك.

﴿قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾.

البث: أشدُّ الهم الذي يظهرُه صاحبُه ولا يقدر على كتمانه فيبثُّه، أي: ينشره، والحزنُ: الَّذي يضمرُه.

يقول إنما أشكو ما أجده من شدةِ الهم ويعتريني من الحزن إلى اللَّهِ، لا إلى خلقِه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: وأعلم مِن سَعةِ رحمةِ الله ولطفِه بعباده مَا لَا تَعْلَمُونَ أنتم، يشيرُ إلى حسنِ ظنِّه بالله وقوَّةِ رجائه فيه أنْ يُعيدَ إليه يوسفَ عليه السلام.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ٨٨، ٨٩

في الكلام حذف اختصار تقديره: فخرجوا راجعين إلى مصر فلما أتوها دَخلوا على يوسف ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ.....﴾؛ أي: أصابنا وأصب أهلنا الضّرُّ من الجدب والقحط وقلة الطعام.

﴿وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ﴾.

أي: وجئنا ببضاعة كاسدة مدفوعة، يدفعها كل تاجر رغبةً عنها وزهدًا فيها واحتقارًا لها، وأصل معنى (التزجية): الدفع والرمي، يقال: أزجيته إذا دفعته.

﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

أي: فأعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، وقال سعيد بن جبير والسدي: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا﴾، يقولون: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتجوز فيها، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

عن عثمان بن الأسود، سمعت مجاهدًا وسئل: هل يكره أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدق علي؟ قال: نعم، إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب.

﴿قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ﴾.

أي: هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف ﴿وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ﴾، أي: لا تدركون مغبة فعلكم، وقبح أثره، وسوء عاقبته.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (٩١) قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ٩٠- ٩٢

قال إخوةُ يوسفَ له حينَ قال لهم ذلك: ﴿قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾، فقال: نعم ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا﴾، بأن جمَع بينَنا بعدَ ما فرَّقتم بينَنا، ووصلَ ما قطعْتُم.

وقيل: قدْ مَنَّ اللَّهُ عليَّ بإنجائي من الرِّقِّ، وعصمني من الزللِ، وأخرجني مِن السِّجن، وجعلَ مقاليدَ مصرَ بيده، ذلك فضل الله.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

إنه من يجعل بينه وبين أسباب سخط الله تعالى وقاية بترك الذنوب والمعاصي، ويصبر على طاعة الله تعالى، ويصبر عن الآثام، ويصبر على أقدار الله تعالى المؤلمة، فهو من المحسنين والله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ﴾.

قالوا: نقسم لقد فضَّلك الله علينا بالتقوى والصبر، أما نحن فقد كان شأننا أننا كنا متعمِّدين الإثم.

﴿قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

التثريب هو: التعيير والتقريع والتوبيخ والتأنيب؛ أي: قال يوسف عليه السلام لهم: لا تأنيبَ عليكم اليومَ فيما صنَعتم، وقوله: ﴿الْيَوْمَ﴾، ليس المراد منه نفي التثريب عليهم اليوم فقط، وإنما المراد إن لم يكن تثريب اليوم عند أول الصدمة، فما بعده أولى بترك التثريب.

﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

لما عفا عنهم، وترك عتابهم، سأل الله تعالى أن يغفر لهم وأن يرحمهم، ليبين لهم أنه لا يضمر لهم شيئًا من البغضاء، وهذا من كمال مروءته، وشرف نفسه عليه السلام.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾. سورة يوسف: الآية/ ٩٣- ٩٥

قال لهم يوسف عليه السلام: اذهبوا بقميصي هذا وأعطاهم قمصيه الذي كان يلبسه، ﴿فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾؛ أي: يرجع بصيرًا، وكان قد عمي من كثرة بكائه على يوسف عليه السلام، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وأتوني بجميع آل يعقوب.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾.

يقال: فصَل من البلد: إذا تجاوزه وانفصل عنه، أي: ولما انفصلت العير من حدود مصر قاصدة أرض كنعان، حملت الريح رائحة قميص يوسف إلى يعقوب، فقال لمن بقي عنده من ولده: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾، قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾، لولا أن تسفِّهون. ومجاهد أيضًا: لولا أن تقولوا ذهب عقلك وخرفت.

والتَّفنيدُ: تضعيف الرَّأي، والفَنَدُ: ضعفُ الرَّأي؛ قال الشَّاعر:

يا صاحِبيَّ دعا لَومِي وتَفنِيدِي ***** فليسَ ما فاتَ مِن أمري بِمَرْدُودِ

ولولا حرف امتناع لوجود، وجوابها محذوف، وتقديره كما قال الزمخشري: لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني.

﴿قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾.

لما اعتبروا حب أبيهم ليوسف وأخيه وعنايته بهما أكثر من عنايته ببقية أبنائه ضلالًا، بقولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ٥]، عادوا فقالوا ذلك مرة أخرى حين أخبرهم أنه يجد رائحة يوسف، وأنه مازال يذكره ويرجو حياته على طول العهد بينهما.

قال ابن عباس قوله: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾. يقولُ: خَطائك القديم.

قال قتادةَ: ﴿قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾؛ أي: من حُبَّ يوسف لا تنساه ولا تسلاه. قالوا لوالدهم كلمةً غليظةً لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبيِّ الله صلى الله عليه وسلم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قالُوا يَا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (٩٧) قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾.
سورة يوسف: الآية/ ٩٦- ٩٩

أي: فلما أن جاء الذي أرسله يوسف بالبشارة ألقى القميص على وجه يعقوب عليه السلام فرجع إليه بصره.

﴿قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: قال يعقوب لمن حضره من أبنائه الذين كانون يفندونه، ويرمونه بالضلال، وفيه دليل أنه لم ينقطع رجاؤه في لقاء يوسف، لحسن ظنه بالله تعالى، وعلمه بسنن الله تعالى في خلقه.

﴿قالُوا يَا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ﴾.

قال له بنوه: يا أبانا استغفر لنا الله تعالى ﴿إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ﴾، فيما اقترفناه في حقك وحق يوسف.

﴿قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

قيل: أخرهم إلى وقت السحر؛ لأنه أرجى للإجابة، ومد لهم حبل الرجاء بثلاثة أسباب: وعدهم الاستغفار، وتحرى أرجي وقت للإجابة، وذيل كلامه باسمين من أسمائه الحسنى الدالة على عظيم مغفرته، وسعة رحمته.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾.

فلما دخل يعقوب وآله جميعًا على يوسُفُ ﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾، أي: ضم إليه أباه وأمه واعتنقهما، والأبوان: اسمٌ للأبِ والأمِّ، تغليبًا للذَّكر على الأنثى.

وقيل: توفيت أمه فتزوج يعقوب خالته، وإنما قال من قال ذلك تبعًا لأهل الكتاب، وعلى هذا القول نزل الخالة منزلة الأم كتنزيل العم منزلة الأب في قوله: ﴿وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

١٣٣]، والراجح أنها أمه التي ولدته، ولا يترك لفظ القرآن ومعناه المتبادر إلى الذهن لما ورد في كتب أهل الكتاب، وعليه فلا حاجة إلى ذلك التأويل، قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها.

﴿وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾.

وقد أشكل قوله: ﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ على كثير من المفسرين؛ فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام: وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين وآوى إليه أبويه ورفعهما على العرش.

وقال السدي: فحملوا إليه أهلهم وعيالهم، فلما بلغوا مصر، كلَّم يوسُفُ الملك الذي فوقه، فخرج هو والملوك يتلقَّونهم، فلما بلغوا، مصر، قال: ادْخُلُوا مِصْرَ إن شاءَ اللهُ آمِنِينَ. فَلَمَّا دَخَلُوا على يوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم

وقال ابن كثير: قال لهم بعد ما دخلوا عليه وآواهم إليه: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾، وضَمَّنَه اسكنوا مصر.

قلت: وقول ابن كثير أولى من غيره، فإن القول بالتقديم والتأخير لا بد من دليل يدل عليه.

﴿وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾.

أي: ادخلوا مصر واسكنوها إن شاء الله آمنين مما كنتم فيه من الجهد والقحط والشدائد والمكاره قاطبةً.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ١٠٠- ١٠٢

أي: وأجلس والديه معه على سرير الملك، ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾، تأويلًا لرؤيا يوسف عليه السلام، حين قال لأبيه: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، سجد له أبواه وإخوته وكانوا أحد عشر رجلًا، وكانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد.

وكان هذا جائزًا في شرع من قبلنا، حتى ورد النهي عنه في شرعنا، فنهينا عن السجود لغير الله تعالى، ولو على سبيل التحية والإكرام؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا».[1]

وعَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانٍ لَهُمْ فَقُلْتُ: رَسُولُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَهُ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، فَقُلْتُ: إِنِّي أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانٍ لَهُمْ فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، قَالَ: «أَرَأَيْتَ لَوْ مَرَرْتَ بِقَبْرِي أَكُنْتَ تَسْجُدُ لَهُ؟» قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «فَلَا تَفْعَلُوا، لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ».[2]

---

١ - رواه الترمذي-أبواب الرضاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة، حديث رقم: ١١٥٩، بسند صحيح

٢ - رواه أبو داود- كتاب النكاح، باب في حق الزوج على المرأة، حديث رقم: ٢١٤٠، والحاكم- كتاب النكاح، حديث رقم: ٢٧٩٦، بسند صحيح دون ذكر القبر.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: أَنَّهُ لَمَّا رَجَعَ مِنَ الْيَمَنِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْتُ رِجَالًا بِالْيَمَنِ يَسْجُدُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَفَلَا نَسْجُدُ لَكَ؟ قَالَ: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا بَشَرًا يَسْجُدُ لِبَشَرٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا».[1]

وقال ابن عباس: كان سجودهم كهيئة الركوع كما يفعل الأعاجم.

قوله تعالى: ﴿وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا﴾.

يطلق التأويل ويراد به: التفسير، ويطلق ويراد به: ما يؤول إليه الكلام حقيقة، ويطلق ويراد به: صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى مرجوح بقرينة، والمراد هنا: المعنى الأول والثاني، فإن المراد بالأحد عشر كوكبًا في قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، هم إخوته الأحد عشر، والمراد بالشمس والقمر، أبواه.

وأما المعني الثاني فقد تحققت الرؤيا التي رآها يوسف صغيرًا بسجودهم له حين قدموا عليه، وهو معنى قوله: ﴿قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا﴾، أي: قد حققها لي ربي فجعلها مطابقة للواقع.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾.

أي: وقد أحسن ربي إليَّ، وقيل: ضُمِّنَ الفعلُ: (أَحْسَنَ)، معنى لطف، فإن (أَحْسَنَ) يتعدى بـ (إلى) واللام، فيكون تقدير الكلام: وقد لطَف بي محسنًا إليَّ غيرَ هذا الإحسان.

﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾.

أي: وقد لطَف بي محسنًا إليَّ حين أخرجني من السجن بعدما ابتُليت به، ولم يصرّح بما جرى له في الجب وبيعه بيع العبيد، لئلا يكون تثريبًا على إخوتِه، وقد قال لهم: ﴿قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.[2]

قوله: ﴿وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.

---

١ – رواه أحمد– حديث رقم: ٢١٩٨٦، بسند صحيح

٢ – سورة يوسف: الآية/ ٩٢

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أي: وجاء بكم من البادية من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوته بإغوائه، وأصلُ نَزغَ من نخْس الرائضِ الدابةَ وحملِها على الجري، يقال: نزَغه ونسَغه إذا نخسَه، وقيل: أصل النزغ الدخول في الأمر لإفساده، وقول يوسف: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، مبالغة منه في الإحسان لإخوته، حيث أسند ذلك إلى الشيطان.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: لطيف التدبير لِمَا يشاء من الأمور، ما من صعب إلا وتَنْفُذ فيه مشيئتُه ويتسهَّل بلطف تدبيره.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

لَمَّا جمعَ اللَّهُ تعالى ليوسفَ شملَه، وأقرَّ عينَه، دعا الله تعالى دعاءً جامعًا تضمن الإقرار بنعم الله تعالى، والافتقار إليه، والرغبة فيما عنده تعالى فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ﴾، فيه إقرار بنعم الله تعالى ومنها نعم الملك، ونعمة تأويل الأحاديث، ومن في الموضعين للتبعيض؛ لأنه لم يؤت كلَّ الملك، ولا كلَّ تأويل الأحاديث.

﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

﴿ذلِكَ﴾ إشارة إلى ما قصه الله تعالى عليه من قصة يوسف عليه السلام، ﴿مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

أي: وما كنتَ يا محمدُ صلى الله عليه وسلم عند يَعقُوبَ وأولادِهِ، ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾، أَيْ: حين عَزمُوا على إلقاء يُوسفَ فِي الجبِّ، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بيوسفَ ويحتالون على أن يفرِّقوا بينَه وبين أبيه يعقوب، ليخلوَ لهم وجهُ أبيهم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ١٠٣- ١٠٥

يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن أكثر الناس مع رغبة النبي صلى الله عليه وسلم في هدايتهم وحرصه البالغ على إيمانهم، ومع ذلك لا يؤمنون، والحرص: شدة طلب الشيء والرغبة في تحصيله.

ولفظ (الناس) عامٌ فيدخل فيه المشركون واليهود وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾، جملة معترضة بين اسم ما وخبرها، وفائدته بيان أن كفر أكثر الناس كفر عناد واستكبار، وقطع رجاء النبي صلى الله عليه من إيمان لم يرد الله تعالى هدايته.

﴿وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

يقول تعالى لرسول محمدٍ صلى الله عليه وسلم: وما تسأل يا محمد هؤلاء المشركين الذين يكذبونك، ولا يؤمنون بما جئتهم به من عندِ ربّك على ما تَدعُوهم إليه من التوحيد إخلاص العبادة لله، ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾، يعنى: من ثواب وجزاءٍ منهم، ليعرضوا عنك ذلك الإعراض، وينفروا تلك النفرة، إنما ثوابُك وجزاء دعوتك على الله تعالى.

قال ابن عباس ﴿وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: عرض من أعراض الدنيا.

﴿إِنْ هُوَ إِلَاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾.

(إن) هنا نافية؛ أي: ما هذا الذي أرسلك به ربُّك يا محمد صلى الله عليه وسلم من النبوَّة والرسالة، وما أنزل عليك من القرآن إلا ذكرٌ، أي: إلا عظة وتذكيرٌ للعالمين، ليتعظوا ويتذكروا به.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ﴾.

أي: وكم من آية كونية لله تعالى في السماوات والأرض، هي حُجَّة باهرة على وحدانية الله تعالى؛ كالشمس والقمر والنجوم، والسماء والجبال والبحار والنبات والأشجار، وغير ذلك ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾، ويرونها بأعينهم، ومع ذلك يمرُّون عليها حال كونهم معرضين عنها، لا يعتبرون بها.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَاّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ١٠٦، ١٠٧

يخبر الله تعالى أن مشركي قريش الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، مهما آمنوا فإيمانهم مشوب بشرك، فقد كانوا يعتقدون أن الله تعالى خالقهم وخالق السماوات والأرض وهو الذي يرزقهم، ثم يعبدون غير الله تعالى ويدعون من دونه أصنامًا يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى.

قال مجاهدٌ: ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَاّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾، إيمانهم قولهم: الله خالقنا، ويرزقنا ويميتُنا. فهذا إيمان مع شركِ عبادتِهم غيرَه.

وعن عكرمة في قوله: ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَاّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾، قال: من إيمانهم إذا قيل لهم: من خلق السماواتِ؟ قالوا: الله. وإذا سئلوا: ومَن خلقهم؟ قالوا: الله. وهم يشركون به بعد.

وعن ابن عباس قوله: ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَاّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾، يعنى النصارى، يقولُ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. ولئن سألتهم: من يرزُقُكم من السماء والأرض؟ ليقولُنَّ: الله. وهم مع ذلك يُشْرِكُون به، ويعبدون غيره، ويَسْجُدُون للأنداد دونَه.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ﴾.

أي: يقول الله تعالى: أفأمن هؤلاء الذين يقرون بأن الله تعالى هو الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض، ثم يعبدون غيره، أفأمنوا أن يصيبهم عذاب عام يغشاهم جميعًا، قال مجاهد: عذاب يغشاهم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقال الضحاك: يعني الصواعق والقوارع.

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.

يعني: أو تأتيهم الساعة فجأة، وهم لا يشعرون بقيامها.

قال ابن عباس: تهيج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحانَ اللَّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ١٠٨

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد للناس جميعًا: هذه طريقتي وسنتي التي انتهجها الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة؛ أي: حجة واضحة وبرهان قاطع.

﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

أي: أنا ومن اتبعني يدعو إلى الله على بصيرة، فمن دعا إلى الله تعالى فهو على سبيل رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو على بصيرة، وهو من أتباعه صلى الله عليه وسلم.

وقوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾، دليل على أن من كان من أتباعه صلى الله عليه وسلم فيجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى، ويجب عليه أن يكون على بصيرة من دينه؛ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً».[١]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ».[٢]

قال ابن عباس إن محمدًا صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا على أحسن طريقة وأفضل هداية وهم معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمن.

وقال ابن مسعود: ومن كان مستنًا فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا خير هذه الأمة وأبرها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطريقهم فهؤلاء كانوا على الصراط المستقيم.

---

١ - رواه البخاري- كتاب أحاديث الأنبياء، بَابُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حديث رقم: ٣٤٦١

٢ - رواه أحمد- حديث رقم: ٢١٥٩٠، وأبو داود- كِتَاب الْعِلْمِ، بَابُ فَضْلِ نَشْرِ الْعِلْمِ، حديث رقم: ٣٦٦٠، والترمذي- أَبْوَابُ الْعِلْمِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الحَثِّ عَلَى تَبْلِيغِ السَّمَاعِ، حديث رقم: ٢٦٥٦، وابن ماجه- المقدمة، بَابُ مَنْ بَلَّغَ عِلْمًا، حديث رقم: ٢٣٠، بسند صحيح

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَسُبْحانَ اللَّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: وقل سبحان الله، ومعناها أنزه الله تعالى عن كل نقص، وأتبرأ إلى الله تعالى من كل ما يؤدي إلى شيء من الشرك.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَاّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ١٠٩

لما أنكر المشركون أن يكون رسول الله إلى أهل الأرض من جنس البشر، كما قال تعالى: ﴿وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلَاّ أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، بيَّن الله تعالى سنته في إرسال الرسل فقال: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَاّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾، أي: ما أرسلنا مِن قبلِكَ بالرسالةِ إلَّا بشرًا؛ لم نبعث مَلَكًا ولا جِنًّا؛ فكيف أنكرتم أن يكون رسولنا إليك بشرًا، ولم تروا ولا سمعوا رسولًا قبله إلا من البشر، فلم يكن محمدٌ صلى الله عليه وسلم بدعًا من الرسل حتى يبادروا إلى إنكار رسالته ويعرضوا عن النظر فيما آتاه الله من الآيات.

وقوله تعالى: (رِجالاً) دليل على قصر النبوة والرسالة على الرجال دون الملائكة والنساء، ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾، بإنزال الكتب وتبيين الشرائع؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤]؛ أي: أرْسَلْناهم بالبيناتِ والزُّبُرِ.

﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾.

أي: من أهل الأمصار والمدن؛ ولم يبعثوا من أهل البوادي وأهل البراري.

وقال الحسن: لم يبعث الله نبيًّا من بدو، ولا من الجن، ولا من النساء.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

سؤال الغرض منه الإنكار على مشركي قريش ومن لف لفهم وسلك سبيلهم في التكذيب، يعني هؤلاء المشركين المكذبين أفلم يسيروا في الأرض فينظروا إلى مصارع الغابرين من الأمم السابقة، وكيف أهلكهم الله تعالى لما كذبوا الرسل، وكانوا أكثر أموالًا وأولادًا من مشركي قريش، وكانوا أشد منهم قوة، فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

اللام في قوله: ﴿وَلَدارُ الْآخِرَةِ﴾، هي اللام الموطئة للقسم؛ أي: أقسم أن الدار الآخرةِ خير للمؤمنين المتقين، وفيها بشارة للرسل ومن آمن بهم، وتهديد ووعيد لمن كفر بالله وكذب المرسلين، وقوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾، التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لأنهم لما تكرر ذكرهم صاروا كالحاضرين، فالتفت إليهم بالخطاب.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ مَا كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ١١٠، ١١١

يخبر الله تعالى عن عنايته ونصره لرسله صلوات الله وسلامه عليهم، حين تدلهم الخطوب، وتضيق بهم الحال مع من كذبهم من أقوامهم، فيأتيهم نصر الله تعالى أحوج ما يكونون إليه، ويكشف ما نزل بهم من الضر، بعدما بلغت القلوب الحناجر، وظنوا بالله الظنونا.

وفي قوله تعالى: ﴿كُذِبُوا﴾ قراءتان متواترتان الأولى بتخفيف الذال، وهي قراءة: أبي جعفر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف، والثانية بتشديد الذال وهي قراءة: نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب، ﴿كُذِّبُوا﴾.

وعلى قراءة التخفيف يكون المعنى: أنهم طالت عليهم المدة دخلهم الإياس وظنوا أنهم قد أُخلفوا، لا من تهمة لوعد الله تعالى، ولكن لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثًا ينقض ذلك الشرط والعهد الذي عهد إليهم، كما قال تعالى عن المؤمنين يوم الأحزاب: ﴿إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]، والظن هنا على بابه وهو معفو عنه لما ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ عز وجل تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ بِهِ».[1]

ويحتمل أن يكونوا قد قربوا من ذلك الظن، كقولك: بلغت المنزل، أي قربت منه.

قال ابن عباس: كانوا بشرًا فضعفوا من طول البلاء، ونسوا وظنوا أنهم أُخلفوا؛ ثم تلا: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.[2]

١ - رواه مسلم- كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ تَجَاوُزِ اللهِ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَالْخَوَاطِرِ بِالْقَلْبِ إِذَا لَمْ تَسْتَقِرَّ، حديث رقم: ١٢٧

٢ - سورة البقرة: الآية/ ٢١٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وروى مسروق، عن عبد الله أنه قرأ: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ مخففة، قال عبد الله: هو الذي تَكَره.

وقوله: (هو الذي تكره)، يعني: ظنوا أنهم أُخلفوا حين تأخر النصر.

وروي عن ابن عباس قول آخر يغاير القول الأول؛ قال ابن عباس: لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم، جاءهم النصر على ذلك، وروي عن ابن مسعود مثله.

وروى ابن جرير عن إبراهيم بن أبي حُرّة الجزري قال: سأل فتى من قريش سعيد بن جبير فقال له: يا أبا عبد الله كيف هذا الحرف، فإني إذا أتيت عليه تمنيت ألا أقرأ هذه السورة: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾؟ قال: نعم حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، فقال الضحاك بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجلًا يدعى إلى علم فيتلكأ، ولو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلًا.

وعلى قراءة التشديد يكون المراد: حتى إذا طال البلاء بالرسل، وتأخر عليهم النصر استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنوا أن أتباعهم قد كَذَّبُوهم، جاءهم عند ذلك نصر الله تعالى.

عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ لَهُ، وَهْوَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ قَالَ: قُلْتُ: أَكُذِبُوا أَمْ كُذِّبُوا؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: كُذِّبُوا، قُلْتُ: فَقَدِ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ؟ قَالَتْ: أَجَلْ لَعَمْرِي لَقَدِ اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ، فَقُلْتُ لَهَا: وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا، قَالَتْ: مَعَاذَ اللهِ، لَمْ تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا، قُلْتُ: فَمَا هَذِهِ الْآيَةُ؟ قَالَتْ: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمُ النَّصْرُ، حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَظَنَّتِ الرُّسُلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ، جَاءَهُمْ نَصْرُ اللهِ عِنْدَ ذَلِكَ».[1]

﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

١ - رواه البخاري- كِتَابُ التَّفْسِيرِ، سُورَةُ يُوسُفَ، باب قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾، حديث رقم: ٤٦٩٥

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أي: من عبادنا المؤمنين المطيعين عند نزول العذاب بالكافرين، وَلا يُرَدُّ عذابنا عَنِ القومِ الكافرين.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ مَا كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. سورة يوسف: الآية/ ١١١

﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ مَا كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

يقول الله تعالى: لقد كان في قصص يوسف وأبيه وإخوته لأصحاب العقولِ، وأولي النهى، عِبرةٌ يعتبرون وموعظةٌ يتعِظون بها، وقيل: المراد لقد كان في قصص الأنبياء والمرسلين.....

﴿مَا كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى﴾.

ما كان القرآن حديثاً مختلقًا كما زعم المشركون؛ قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، ﴿وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾.[١]

﴿وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

أي: ما كان حديثًا يفترى كما يزعم هؤلاء المشركون بل كان تصديقًا لما في التَّوراة والإنجيل والكُتب المنزَّلة قبلَه، وقوله: ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، يعني: الذي سبقه وتقدم نزوله على الأنبياء والرسل من الكتب.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: وتبيينًا لكلِّ شيءٍ ممَّا يحتاج إليه النَّاس في دينِهم، وهو كذلك يفصل بين أهل الكتاب فيما تنازعوا فيه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.[٢]

١ – سورة الفرقان: الآية/ ٥

٢ – سورة الإسراء: الآية/ ٧٦

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

يهدي الله تعالى به قلوب المؤمنين إلى الحقِّ والرشادِ وإلى الصِّراط المستقيم، ورحمة من الله تعالى يرحم بها أهل الإيمان.

آخر تفسير سورة يوسف، ولله الحمد رب العالمين.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تفسير سورة الرعد

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾. سورة الرعد: الآية/ ١

سورة الرعد مكية، وسميت بذلك لورود لذكر الرعد فيها: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾.[١]

مناسبتها لما قبلها:

وجه مناسبتها لما قبلها أنه تعالى قال في سورة يوسف: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، فأجمل سبحانه وتعالى الآيات الكونية ثم فصلها هنا أتم تفصيل، وقال تعالى في آخر سورة يوسف: ﴿مَا كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، فوصفه بأنه مصدق لما بين يديه من الكتب، وأنه تفصيل لكل شيء، وهدى ورحمة للمؤمنين، ووصفه هنا بأنه الحق الذي لم تشبه شائبة من الباطل: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد: ١]، وقال في سورة يوسف: ﴿وما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال هنا: ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾.[٢]

بين يدي السورة:

سورة الرعد شأنها شأن السور المكية التي نزلت تعالج مسائل الاعتقاد، بدأت بالحروف المقطعة شأنها شأن أغلب السور المكية، وذكر الله تعالى فيها دلائل وحدانيته، ومظاهر قدرته العظيمة ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى...﴾، وتمضي الآيات في ذكر دلائل التوحيد، ومظاهر قدرة الله تعالى، وبدائع صنعه تعالى في الكون، ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ

١ - سورة الرعد: الآية/ ١٣

٢ - سورة الرعد: الآية/ ١

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]، ثم ذكر الله تعالى علمه الذي أحاط بكل شيء: ﴿سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ﴾.[1]

ثم قسم الله تعالى الناس بالنسبة إلى استقبالهم لآيات الله إلى فريقين: فريق يعلم أنها الحق الذي لا مرية فيه، وفريق أعمى الله بصائرهم، فلم ينتفعوا بنور الله تعالى على تمامه وشدة ظهوره: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ [الرعد: ١٩]، وما أعده الله تعالى للفريقين يوم القيامة، بضرب المثل للجنة التي وعد المتقون فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]، ثم ختم الله تعالى السورة بما كان يصرح به الكفار من التكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مع شهادة الله تعالى له بالصدق والأمانة: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾.[2]

﴿المر﴾ تقدم الكلام عن الحروف المقطعة في سورة البقرة.

﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ﴾.

إشارة إلى آيات السورة، وفيها تعظيمٌ لها، والألف واللام في الكتاب للعهد أي: القرآن؛ فإنه الكتابُ العجيبُ الكاملُ الغنيُّ عن الوصف به المعروفُ بذلك من بين الكتب، فإذا قيل: الكتاب فالمراد به القرآن.

﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وهذا القرآن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق لا كما يزعم المشركون أنَّه مفترى: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَاّ إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾

١ – سورة الرعد: الآية/ ٤

٢ – سورة الرعد: الآية/ ٤٣

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾.

أي: الله الذي خلق السماوات والأرض مرفوعة، لا أنها كانت موضوعة فرفعها، ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾، عَمَدُ جمعُ عِمادٍ، وهي السَّواري، والدعائم، والأساطين.

وفي قوله تعالى: ﴿تَرَوْنَها﴾ قولان:

أحدهما: أن هاء الكناية ترجع إلى السّماوات، فالمعنى: ترونها بغير عَمَد، وهو قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والجمهور.

وقال ابن الأنباري: ﴿تَرَوْنَها﴾ خبر مستأنف، والمعنى: رفع السّماوات بلا دعامة تمسكها، ثم قال: ﴿تَرَوْنَها﴾ أي: ما تشاهدون من هذا الأمر العظيم، يغنيكم عن إقامة الدلائل عليه.

والثاني: أنها ترجع إلى العَمَد، أي: بغير عَمَدٍ مرئيَّة.

استواءً يليق بذاته تعالى، نؤمن به بلا تحريف ولا تأويل ولا تكييف ولا تعطيل.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

أي: ذلَّلهما وقصَرَهما على سَنَنٍ واحدٍ لمنافعِ عبادِه ومصالحِ بلادِه؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾. أي: كلٌّ منهما يجري إلى وقتٍ مقدَّرٍ، ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]؛ أي: بحسبانٍ معلومٍ لا يختلف.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

أي: يدبر أمر الكون بعلمه الذي أحاط بكل شيء، وقدرته على كل شيء، ويوضح الآيات الدالة على وحدانيته تعالى، لتيقنوا من البعث والنشور، والعرض على الله تعالى والجزاء والحساب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. سورة الرعد: الآية/ ٣، ٤

لما أخبر الله تعالى أنه اسْتَوى عَلَى العَرشِ وأنه رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيرِ عَمَدٍ، وَأنه سَخَّرَ الشَّمسَ وَالقَمَرَ ذكر تعالى هنا أن من دلائل وحدانيته، وأن من علامات قدرته الباهرة، أنه تعالى هو الذي مد الأرض أي: بسطها جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض.

﴿وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً﴾.

الرواسي جمع راسية، والمراد بها الجبال الثابتة، يقال: رَست السفينةُ تَرْسُو رَسْوًا؛ أي: ثبتَت.

وجعل فيها أنهارًا جارية، فيها المياه العذبة.

﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾.

الزوج يطلق ويراد به الشفع، ويطلق ويراد به الفرد المقارب لشبهه، فأتبعه بـ ﴿اثْنَيْنِ﴾ لبيان أنه لم يُرد به الشفع، ولكن أراد به الفرد المقارب لشبهه، وذكر أيضًا للتأكيد تحقيقًا للامتنان، وتمكينًا للمعني في النفس؛ أي: جعل من أنواع الثمرات فيها صنفين متقابلين؛ كالحلو والحامض، والأبيض والأسود، والكبير والصغير؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.[1]

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾.

أي: يغطِّي الليلُ النهارَ فيُذهب ضوءَه، ويغشَى النهارُ الليلَ فيُذهب ظلمتَه، ومثله قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ [الحج: ٦١]، وقوله: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾.[2]

١ – سورة الذاريات: الآية/ ٤٩

٢ – سورة الزمر: الآية/ ٥

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: إن في تعاقب الليل والنهار لآيات بينات ودلائل قاطعات، على أنَّ للكون خالقًا عليمًا حكيمًا قادرًا.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ﴾.

أي: وفي الأرض قطع متقاربات ومتدانيات، يجاور بعضها بعضًا، وهي مع ذلك منها ما هو سهل ومنها ما هو حزن، ومنها الرخوة ومنها القاسية الحجرية، ومنها المالحة، وغير المالحة، ومنها السبخة والطيبة الصالحة للزراعة، ولكل واحدة من الخصائص ما ليس لغيرها، فهذه طيبة يخرج نباتها بإذن ربها، وهذه سبخة لا تنبت، وهذا تمسك الناء، وهذه لا تمسك الماء.

عن مجاهدٍ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ﴾، قال: السَّبَخةُ والعَذِية، والمالحُ والطيبُ.

وقيل: ترابها واحد وماؤها واحد ثم تتفاوت في الثمار فيكون البعض حلوًا والبعض حامضًا، والبعض طيبًا والبعض غير طيب.

﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ﴾.

أي: وفي الأرض بساتين مِن أعناب، وزرع ونخيل، ﴿صِنْوانٌ﴾، الصِّنْوانَ جمعُ صِنْو، وهي النخَلاتُ يَجْمَعُهن أصلٌ واحدٌ، ﴿وَغَيْرُ صِنْوانٍ﴾ يعني: واحدةٌ.

عن سعيدِ بن جبيرٍ: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ﴾. قال: مجتمعٌ، وغيرُ مجتمعٍ.

﴿يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي: جميعُ ذلك يُسقَى بماءٍ واحدٍ عَذبٍ، ومع ذلك نُفَضِّلُ نحن بعضَها على بعضٍ في الأُكُلِ، لتفاوت ما بينها في الطعم، فهذا حلوٌ وهذا حامضٌ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ﴾. سورة الرعد: الآية/ ٥، ٦

لما ذكر الله تعالى من الآيات الكونية ما يدل على وحدانيته، وذكر شيئًا من دلائل قدرته، ومع ذلك لا يزال بعض الناس سادرين في غيهم، منغمسين في ضلالهم، وهو أمر يدعو للعجب، قال الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: وإن تعجب يا محمد صلى الله عليه وسلم من هؤلاء المشركين الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، ورأوا آيات الله تعالى المبثوثة في الكون فلم ينتفعوا بشيء منها، فإن من أعجب العجب إنكارهم البعث بعد الموت بقولهم: ﴿أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وتكذيبهم بالبعث بعد الموت، وكانوا يقولون إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع.

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ﴾.

أي: أولئك المنكرون للبعث والمنشور هم الذين كفروا بربهم، وتقديم الضمير المنفصل للاختصاص والتأكيد، وأولئك المنكرون ستوضع الأغلال في أعناقهم يوم القيامة مبالغة في الإذلال والتعذيب.

﴿وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾.

في تكرير لفظ (أولئك) تعظيم لإنكارهم، وتأكيد في تقبيحه، وبيان أنه سبب العذابِ الدائم في الآخرة، وقوله: ﴿هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾، تقديم الضمير: (هم) لتخصيصِ الخلود بالكفار.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾.

أي: ويستعجلك هؤلاء المكذبون بنزول العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾، الْمَثُلات في اللُّغة: العقوبات الَّتي تَزجرُ عن مثل ما وقعَتْ لأجله، قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: العقوبات.

وقال قتادة: وقائع الله في الأمم الخالية.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أي: وإن ربك لذو تجاوز عظيم، للناس مع ظلمهم باقترافهم الذنوب ووقوعهم في المعاصي إن تابوا عن ذلك ورجعوا إلى الله سبحانه، وهو مع ذلك شديد العقاب لمن كفر بالله وعصى أمره.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾. سورة الرعد: الآية/ ٧، ٨

يقول الله تعالى: ويقول الذين كفروا هلّا أُنزِل على محمدٍ صلى الله عليه وسلم آيةٌ من ربّه تكون دليلًا على نبوَّتِه، وإنما أرادوا آية يقترحونها؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَاّ بَشَراً رَسُولاً﴾.[1]

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾.

لما قال المشركون: ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، إنما أنت يا محمد صلى الله عليه وسلم: مرسَل من ربك تعالى للإنذار والتخويف من سوء العاقبة كغيرك من الرسل، لا للإتيان بما اقتَرحوا عليك من الآيات، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾، وشأنك في البعثة والرسالة كشأن من قبلك من الأنبياء والرسل، إرشاد العباد إلى الطريق المستقيم، ودلالتهم على رب العالمين، والهداية هنا هداية الإرشاد والدلالة.

قال مجاهد: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبي، كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.[2]

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى﴾.

يخبر الله تعالى أن من دلائل وحدانيته تعالى أنه تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا، ومن ذلك أنه تعالى يعلم ما تحمل كل أنثى؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، فيعلم ما تحمل كل أنثى

١ – سورة الأسراء: الآية/ ٩٠– ٩٣

٢ – سورة فاطر: الآية/ ٢٤

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، أو تام الخلقة أو ناقصها.

﴿وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ﴾.

أي: ما ينقص من الحمل عن تسعة أشهر وما يزيد عليها.

قال ابن عباس: ﴿وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ﴾: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾.

أي: وكل شيء عند الله تعالى بتقدير محكم، منضبط وحدّ لا يجاوزه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾.[1]

١ - سورة الفرقان: الآية/ ٢

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (٩) سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ﴾. سورة الرعد: الآية/ ٩، ١٠

أي: عالم بكل شيء غائبٍ عن الحس وعالم بكل شيء حاضرٍ له، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وهو تعالى الكَبِيرُ العظيمُ في شأنه وسلطانه، وهو المستعلي على كلِّ شيء علو ذات وعلو قدر وعلو قهر، فلا يخرج شيءٌ عن حكمه ولا يَعزب شيء عن علمه.

﴿سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾.

يخبر الله تعالى عن شيء من دلائل قدرته، أنه تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه يستوي في علمِ اللَّه ورؤيتِهِ وسمعِهِ المسِرُّ والذي يجهرُ، والذي يَكمن والذي يَظْهَر، فالبصرُ متناولٌ للكلِّ، والعلمُ شاملٌ للجميع، والحكمُ جارٍ على الكافَّة.

عن مجاهدٍ: ﴿سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾، يَقولُ: السرُّ والجهْرُ عندَه سواءٌ.

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ﴾.

قال مجاهد: أما المستخفي ففي بيتِه، وأما الساربُ: الخارجُ بالنهارِ، حيثما كان المستخفِي غيبُه الذي يَغِيبُ فيه، والخارجُ عندَه سواءٌ.

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.[١]

١ – سورة فصلت: الآية/ ٢٢

وكان الْمُشركون يعتقدون في الله تعالى أنه يسمع الجهر دون الإخفات، ويعلم العلانية دون السر، فأبطل الله تعالى زعمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى﴾.[1]

١ - سورة طه: الآية/ ٧

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ﴾. سورة الرعد: الآية/ ١١

يخبر الله تعالى أن من دلائل وحدانيته، ومن آيات قدرته الباهرة أنه تعالى له ملائكة يتعاقبون في العباد بالليل والنهار، فإذا صعدت ملائكة الليل جاء في عقبها ملائكة النهار، وإذا صعدت ملائكة النهار جاء في عقبها ملائكة الليل، والتعقيب: العود بعد البدء، وإنما ذكر بلفظ التأنيث لأن واحدها معقب، وجمعه معقبة، ثم جمع الجمع معقبات، كما قيل: سادات جمع أسياد، ورجالات جمع رجال.

وقيل للملائكة معقبات؛ لأن بعضهم يَعْقُب بعضًا على الدوام، أو لأنهم يُعَقِّبون ما يفعل ويتكلم به فيكتبونه، والتاءُ للمبالغة، أو لأنها جماعات.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ: مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ، كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ».[١]

عن ابن عباس في قوله: ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: والمعقبات من الله هي الملائكة.

وعن مجاهد أنه قال: ما من عبدٍ إلا له ملك موكَّل يحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوامّ، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال: وراءَك! إلا شيئًا يأذن الله فيه فيصيبه.[٢]

١ – رواه البخاري– كِتَابُ التَّوْحِيدِ، بَابُ كَلَامِ الرَّبِّ مَعَ جِبْرِيلَ، حديث رقم: ٧٤٨٦، ومسلم– كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابُ فَضْلِ صَلَاتَيِ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا، حديث رقم: ٦٣٢

٢ – تفسير الطبري (١٦/ ٣٧٣)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

أي: لهذا الذي هو مستَخْفٍ باللَّيل وساربٌ بالنَّهار، حفظةٌ مِن الملائكةِ يحفظونه مما يستقبله، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾. أي: مِن وراء ظهرِه، والمراد أن الملائكةِ حولَه، يحفظونه بأمر الله لهم، فالمراد أن حفظهم له من أمر الله.

عن ابن عباس ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾. قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلو عنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

يخبر الله تعالى أنه عز وجل لا يغير ما بقوم من العافية والنعمة، فيزيل عنهم نعمته ويسلبهم عافيته، حتى يغيروا ما بأنفسهم، فيجحدوا نعمة الله تعالى عليهم، ولا يشكروا الله تعالى عليها، ويظلم بعضهم بعضا، ويبغي بعضهم على بعض، فينزل الله تعالى بهم بأسه، ويحل عليهم عقوبته.

وهي سنة الله تعالى في عباده، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٩]، وقال الشَّاعر:

لم يشكروا نعمةَ ما خُوِّلوا ***** فبدَّلوا المالحَ بالعذْبِ

صاحَ بهمْ مِنْ بينِهم صائحٌ ***** شتَّتَهُم في الشَّرْقِ والغَرْبِ

قال ابنُ عبَّاس: إذا أنعمَ اللَّهُ على قومٍ بنعمةٍ فشكروها ولم يَكْفرُوها زادَ لهم تلك النِّعمة وأدامَها عليهم، وإذا لم يشكروها وتلقَّوها بالكُفْران سلبَها عنهم وابتلاهم بضدِّها.

﴿وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ﴾.

يخبر الله تعالى أنه إذا أراد بقوم ضرًا أو عذبًا أو هلاكًا فلا يرده عنهم رادٌّ، ولا يمنعه عنهم مانع.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ﴾.

أي: وليس لهم من دون الله تعالى من يتولى أمرهم وينصرهم أو يدفع عنهم بأس الله وعذابه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ﴾. سورة الرعد: الآية/ ١٢، ١٣

يخبر الله تعالى أن من دلائل وحدانية، وأن من آيات قدرته الباهرة أنه هو الذي يري عباده البرق وهو النورُ الساطعُ الذي يحصل باصطكاك أجرام السحاب بعضها، ﴿خَوْفاً وَطَمَعاً﴾؛ أي: خوفًا من الصواعق التي تكون مع البرق، وطمعًا في نزول الغيث.

قال ابن عباس: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾، يريد خوفًا من الصواعق وطمعًا في المطر.

﴿وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ﴾.

أي: ويخلق السحاب المحمل بالماء، والسَّحابُ جمعُ سحابةٍ، ولذلك قال: ﴿الثِّقالَ﴾ على الجمع؛ أي: الثِّقال بالمطر.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾.

يخبر الله تعالى أن من دلائل قدرته الباهرة أن الرعد وهو ذلك الصوت الهائل الذي تكاد تنخلع منه القلوب يسبح بحمد الله تعالى، شأنه في ذلك شأن كل المخلوقات؛ كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.[١]

١ - سورة النحل: الآية/ ٤٩

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عن عبد الله بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ تَرَكَ الْحَدِيثَ، وَقَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا لَوَعِيدٌ لأَهْلِ الأَرْضِ شَدِيدٌ.[1]

﴿وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ﴾.

أي: ويرسل الصَّواعِقَ نقمةً ينتقم بها ممن يشاء، ومن أمارات الساعة أن تكثر الصواعق؛ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «تَكْثُرُ الصَّوَاعِقُ عِنْدَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ، حَتَّى يَأْتِيَ الرَّجُلُ الْقَوْمَ، فَيَقُولَ: مَنْ صُعِقَ قِبَلَكُمْ الْغَدَاةَ؟ فَيَقُولُونَ: صُعِقَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ».[2]

﴿وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ﴾.

أي: يشكون في وحدانية الله تعالى وعظمته، وهو تعالى شديد الأخذ، شديد القوّة والبطش.

١ – رواه مالك في الموطأ– كتاب الجامع، جامع الكلام، حديث رقم: ٢٠٩٤، والبخاري في الأدب المفرد– بَابُ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ، حديث رقم: ٧٣٢، بسند صحيح

٢ – رواه أحمد– حديث رقم: ١١٦٢٠، والحاكم في المستدرك– كتاب الفتن، حديث رقم: ٨٥٧٨، بسند صحيح

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَاّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَاّ فِي ضَلالٍ﴾. سورة الرعد: الآية/ ١٤

ما زال الحديث في سياق ذكر دلائل وحدانية الله تعالى، يخبر الله تعالى أنه هو وحده تبارك وتعالى الذي يستَحِقُّ أن يُعبد ويُدْعى إلى عبادته دون غيره، فإنه تعالى المنفرد بالخلق والإرادة، والرزق والتدبير، وهو تعالى مجيب دعوة المضطرين، وليس لما عبد من دون الله تعالى من ذلك حظ ولا نصيب.

قال ابن عباس وقتادة: ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله.

وعن عليٍّ رضي الله عنه: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾. قال: التوحيد.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾.

يعني: والأصنام التي عبدت من دون الله تعالى، الذين يدعوهم المشركون من دون الله تعالى، وعبر عنها بجمع المذكر السالم مع أنها جمادٌ؛ لأنَّ المشركين عاملوها معاملة العقلاء الذين يضرُّون وينفعون، ويستجيبون للَّذين يدعون، فأُضِيْفَ الخبر عنهم إليها كما يُضاف إلى العقلاء؛ كما في قوله: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، ويحتمل أن يكون عبر عنها كذلك من باب التغليب، فإنهم عبدوا الملائكة والجن، والعزير والمسيح.

﴿لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَاّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ﴾.

أي: لا يستجيبون لمن دعاهم بشيء إلا كما يستجيب الماء لمن بسَط كفيه إليه من بعيد ويدعوه بلسانه ليصل إلى فمه.

قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبدًا فكيف يبلغ فاه؟

وقال مجاهد: ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيهِ﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبدًا.

وقيل: المعنى: أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه، وقد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقبض على الماء كما قال الشاعر:

فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ***** مِنَ الْوُدِّ مِثْلَ الْقَابِضِ الْمَاءَ بِالْيَدِ

وقال الآخر:

وَمَنْ يَأْمَنِ الدُّنْيَا يَكُنْ مِثْلَ قَابِضٍ ***** عَلَى الْمَاءِ خَانَتْهُ فُرُوجُ الْأَصَابِعِ

﴿وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَاّ فِي ضَلالٍ﴾.

أي: وما دعاء الكافرين الذين يدعون أوثانهم إلا في ضَياعٍ وخَسار.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾. سورة الرعد: الآية/ ١٥

يخبر الله تعالى أنَّ الخلق جميعًا يسجدون له ويسبحونه ويخضعون له ويذعنون له بالطاعة، وتجري عليهم أقداره تعالى لا يمتنع أحدٌ منهم عمَّا أراده الله تعالى به؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]، وكما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]، فلا تضره معصية العصاة، كما لا تنفعه طاعة الطائعين، فإن أعرض المشركون عن عبادة الله تعالى، وعبدوا الأوثان من دون الله تعالى، فلله يسجد من في السماوات من الملائكة الكرام، ومن في الأرض من المؤمنين به طوعًا، فأما الكافرون به، فإنهم تجري عليهم أقدار الله تعالى فيخضعون له كرهًا؛ فعَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تبارك وتعالى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا».[١]

﴿وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾.

أي: ويسجد لله تعالى كذلك ظلُّ كل من سجد لله طوعًا وكرهًا، بالغدوات والعشايا، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ﴾.[٢]

والغُدُوُّ: أول النهار، والآصال: جمعُ أُصُلٍ، والأُصُل: جمع أصيل، وهو العشيُّ، وهو ما بينَ العصرِ إلى غروبِ الشَّمس.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾، فيه تغليب للعقلاء وإلا فإن كل شيء يعبد الله تعالى ويسبحه ويسجد له تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ

١ - رواه مسلم- كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٧٧

٢ - سورة النحل: الآية/ ٤٨

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١]، وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾.[1]

١ – سورة الإسراء: الآية/ ٤٤

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾. سورة الرعد: الآية/ ١٦

يقولُ الله تعالى لنبيّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: قل يا محمدُ لهؤلاء المشركين: مَنْ ربُّ السماواتِ والأرضِ، وأمَر اللَّهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يقولَ: اللَّهُ. لأنهم مقرون أن الله تعالى هو خالق السماوات والأرض ومدبرهما فهو سؤال الغرض منه التقرير؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.[١]

﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾.

ثم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾، وهو سؤال الغرض من التقريع والتوبيخ، والمراد كيف تتخذون من دونه تعالى أولياء لا يملكون لأنفسهم جلب نفع ولا دفع ضر وإن كان حقيرًا، فضلا عن أن يملكون لغيرهم النفع والضرَّ، وهل يستوي الله تعالى الخالق العظيم مع تلك المعبودات الباطلة التي لا تخلق شيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾.[٢]

وقوله: ﴿نَفْعاً﴾ و ﴿ضَرًّا﴾، نكرة في سياق النفي تفيد العموم، ليدخل في ذلك كل نفع وكل ضرٍّ ولو كان حقيرًا.

١ - سورة العنكبوت: الآية/ ٦١

٢ - سورة النحل: الآية/ ١٧

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ﴾.

أي: قل لهم يا محمد صلى الله عليه وسلم: هل يَسْتَوى الأعمى الذي لا يُبْصِرُ شيئًا، ولا يَهْتدى لطريقٍ، والبصيرُ الذي يرى ويُبْصِرُ الطريق الذي يسلكه؟ لا شك أنهما لا يستويان، أم هل تستوي الظلمات التي لا يُرَى فيها السبيلُ فيسلك، والنورُ الذي يُبصَرُ به العباد، ويَجلو ضوءُه الظلامَ؟ لا شك أنهما لا يستويان.

وهو سؤال الغرض منه الإنكار على أولئك المشركين الذين جعلوا المخلوق مساويًا للخالق سبحانه، والعاجز مساويًا للقادر تعالى.

﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾.

أم اتَّخَذْ هؤلاء المشركون أوثانًا أولياءَ مِن دونِ اللَّهِ لأنهم خلقوا خلْقًا كخلقِ اللَّهِ، فاشْتَبه عليكم أمرُها فيما خلَقتْ وخلقَ اللَّهُ، فجعَلوها شركاءَ لله تعالى مِن أجلِ ذلك؟ وهو فرض باطل لأنه لم يدعي أحد من الخلق أنه خلق شيئًا مع الله تعالى، وهو سؤال الغرض منه الإنكار والتوبيخ لهم.

﴿قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

أي: قل يا محمدٍ صلى الله عليه وسلم لهؤلاءِ المشركين اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، خالِقُكم وخالِقُ أوثانِكم، ولا إله يستحق العبادة غيره وهو الواحد القهار سبحانه وتعالى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ﴾. سورة الرعد: الآية/ ١٧

مناسبة الآية لما قبلها:

لما أخبر الله تعالى أنه لا يَسْتَوى عند العقلاء الأعمى الذي لا يُبْصِرُ والبصيرُ الذي يرى، والظلمات الحالكة، والنورُ الذي يُبصَرُ به العباد ضرب الله تعالى مثلين لبيان ذلك مثلًا مائيًّا ومثلًا ناريًّا.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها﴾.

فالأول المثل المائي، شبَّه نزولَ القرآنِ بالماءِ ينزلُ مِن السَّماء، وشبَّه القلوبَ بالأوديةِ والأنهار، فذو العلم على قَدْر علمِه، وذو الجهل على قَدْر جهلِه، فشبه الله تعالى الوحي الذي أنزله لحياة القلوب بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، فمنها القلب الكبير الذي يسع علمًا عظيمًا، كالوادي الكبير الذي يسع ماءً كثيرًا، ومنها القلب الصغير الذي يسع ما يناسب صغره من العلم، كالوادي الصغير الذي يسع ما يناسبه من المياه، ﴿فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها﴾.

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً﴾.

ثمَّ شبَّه وساوسَ الشَّيطان والخَطَرات الفاسدةَ بالزَّبَد الذي يعلو الماء، بفقال تعالى: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً﴾، أي: عاليًا، وهو ما يخالط القلوب من الشهوات والشبهات.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾.

والثاني: المثل الناري وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة، فتخرجه النار وتميزه وتفصله من الجوهر الذي ينتفع به، فيرمى ويطرح ويذهب جفاء، وكذلك الشهوات والشبهات يرميها العلم والهدى من قلب المؤمن ويطرحها، كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث، ويستقر في قرار الوادي الماء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الصافي الذي يستسقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم. كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره.

﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾.

كذلك القرآن إذا حصل حفظُه في القلوب ينفي الوساوسَ والهواجسَ عنها، فكما يذهبُ الزَّبدُ باطلًا ويبقى صفوُ الماءِ، كذلك تذهبُ مخايلُ النَّفس ووساوسُ الشَّيطان ويبقى الحقُّ.

﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ﴾.

أي: كذلك يبن الله تعالى الحق والباطل بضرب الأمثال لتعي ذلك القلوب.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ (١٨) أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾. سورة الرعد: الآية/ ١٨- ٢٢

يقول الله تعالى: الذين أجابوا داعي الله وآمنوا بالله تعالى ولم يشركوا به شيئًا لهم ﴿الْحُسْنَى﴾؛ أي: الجنَّة؛ كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، أي: الجنَّة، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]؛ أي: الظَّفر والشَّهادة، وقيل: ﴿الْحُسْنَى﴾ المثوبةُ الَّتي لا أحسنَ منها، وهي الظَّفَرُ والتَّمكين في الدُّنيا، والنَّعيم المقيم في الجنَّة، والحُسْنَى فُعلَى من الحسن.

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ﴾.

والذين لم يستجيبوا لداعي الله تعالى ولم يوحدوا الله تعالى، فلا نجاة لهم من عذاب الله تعالى يوم القيامة، ولو كان لأحدهم ملء الأرض ومثله معه لبذلوه فداء لأنفسهم من عذاب يوم القيامة.

﴿أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ﴾.

أي: يحاسبهم الله تعالى على الصغير والكبير والنقير والقطمير، فلا يُغْفَرُ لهم شيءٌ من ذنوبهم، ولا يتجاوز لهم عن شيء من أعمالهم.

﴿وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾.

أي: ومرجعهم ومصيرهم جهنم وبئس المستقر والمقام، والتعبير بالمأوى والمهاد تهكم بهم فإن النار لا راحة فيها ولا نوم.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى﴾.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

هذا بيان لما ذكره تعالى من مثلِ المؤمن والكافر، في الآية السابقة وما للمؤمن من الثواب وما للكافر من العقاب، وأنهما لا يستويان في الجزاء.

﴿إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾.

أي: إنما يتعظ بذلك المثل ويعتبر به ذوو العقول السليمة والفطر السوية المستقيمة.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ﴾.

الذين يتصفون بالوفاء بالعهود، وأعظمها عهد الله تعالى وميثاقه، ولا يتصفون بالغدر ونقض المواثيق.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾.

يخبر الله تعالى عن المؤمنين الذين استجابوا لربهم تبارك وتعالى أنهم هم الذين يَصِلُون ما أمر الله تعالى به أن يوصل فيشمل ذلك صلة الرَّحِمَ التي أمَرهم اللَّهُ بوصلِها، والإحسان إلى المؤمنين ورحمتهم وبرهم بكل أنواع البر التي أمر الله تعالى بها وأمر بها رسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.

الخشية خوف مشوب بتعظيم وإجلال، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، فهم لا يعصُونه تعالى هيبةً له وحياءً ورهبةً منه ولا يخالفونه في شيء.

﴿وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ﴾.

أي: ويخافون الِاسْتِقْصَاءَ وَمُنَاقَشَة الحسابِ، فإن مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ.

وفرق بين الخشية والخوف لأن الْخَشيَةَ لا تَكُونُ إلا مِنْ عَظَمَةِ الْمَخْشِيِّ وَإِنْ كَانَ الْخَاشِي في نفسه قَوِيًّا. وَالْخَوْفُ يَكُونُ مِنْ ضَعْفِ الْخَائِفِ وَإِنْ كَانَ الْمُخَوِّفُ أَمْرًا يَسِيرًا

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾.

وَالَّذِينَ صَبَرُوا على الطاعات، وصبروا عما حرم الله تعالى، وصبروا على البلاء ابتغاء ثواب الله تعالى وطلبًا لمرضاته.

قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: صَبَرُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَصَبَرُوا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ. وَقَالَ عَطَاءٌ: صَبَرُوا عَلَى الرَّزَايَا وَالْمَصَائِبِ، وَالْحَوَادِثِ وَالنَّوَائِبِ.

﴿وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾.

أَدَّوْهَا بِفُرُوضِهَا وَخُشُوعِهَا فِي مَوَاقِيتِهَا، وأدوا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ طيبة بها أنفسهم.

﴿وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾.

ويدفعون بالعملِ الصَّالِحِ السَّيِّئَ مِنَ الْأَعْمَالِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وابْنُ زَيْدٍ: يَدْفَعُونَ الشَّرَّ بِالْخَيْرِ. وقال سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَدْفَعُونَ الْمُنْكَرَ بِالْمَعْرُوفِ.

﴿أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

أَيْ أولئك الذين هذه صفاتهم لهم عَاقِبَةُ الْآخِرَةِ، وَهِيَ الْجَنَّةُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ﴾. سورة الرعد: الآية/ ٢٣- ٢٦

لما أثنى الله تعالى على الذين استجابوا لربهم وأخبر تعالى أنهم لهم عقبى الدار، وصف الله تعالى ذلك فقال: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾، فأخبر تعالى أنها جنات؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ».[١]

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: «أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَتَتِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ قَالَ: يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى».[٢]

وأخبر تعالى أن من تمام نعمته على عباده المؤمنين أن يدخلهم الجنة هم وآباؤهم وأزواجه وذرياتهم؛ كما قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.[٣]

١ – رواه البخاري–كِتَابُ التَّوْحِيدِ، قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، حديث رقم: ٧٤٤٤، ومسلم–كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ إِثْبَاتِ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ رَبَّهُمْ سبحانه وتعالى، حديث رقم: ١٨٠

٢ – رواه البخاري– كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ مَنْ أَتَاهُ سَهْمٌ غَرْبٌ فَقَتَلَهُ، حديث رقم: ٢٨٠٩

٣ – سورة الطور: الآية/ ٢١

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ﴾.

ومن كرامتهم على الله تعالى أن الملائكة يدخلون عليهم تكريمًا لهم، ومهنئين لهم بدخول الجنة، ومبشرين لهم بدوام النعيم وتجدده، وبالسلام عليهم.

﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

أي: يدخل عليهم الملائكة وهم يقولون: سلام عليكم بما صبرتم على الطاعات، وعن المعاصي، وعلى الابتلاء في الدنيا فنعم عقبى الدارِ الجنةُ.

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ﴾.

أي: والذين ينقضون عهد الله الذي أخذه الله تعالى عليهم حين خلق آدم عليه السلام بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فنقضهم كفرهم بالله تعالى وتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾.

من الأيمان بالأنبياءِ والرسل جميعًا عليهم السلام، ومن القرابات وذوي الأرحام، ومن موالاةِ المؤمنين والإحسان إليهم.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

بالكفر بالله تعالى، وظلم العباد، والمجاهرة بالذنوب والمعاصي.

﴿أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

أي: أولئك الموصوفون بتلك القبائح التي تقدم ذكرها، جزاؤهم الطرد من رحمة الله تعالى، ولهم سوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

لما أخبر الله تعالى في الآية السابقة أن الكفار الموصفين بنقض عهد الله من بعد ميثاقه، والذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل أنهم لهم اللعنة ولهم سوء الدار، ربما توهم متوهم أن معنى ذلك ضيق العيش في الدنيا، فبين الله تعالى أنَّه يبسط الرزق لمن يشاء ويوسع عليه في المعيشة، ويضيق على من يشاء، ولا يعني ذلك رضاه عمن وسع عليه ولا سخطه على من ضيق عليه، بل قد يوسع على بعض العباد استدرجًا لهم، ويضيق على بعضهم ابتلاءً لهم؛ كما قال تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾.[1]

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَاّ مَتاعٌ﴾.

أي: وفرح المشركون بما أعطاهم الله تعالى من الحياة الدنيا، وما الحياة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة إلا متاع سرعان ما يزول عن صاحبه، ويزول عنه صاحبه.

١ – سورة آل عمران: الآية/ ١٩٦، ١٩٧

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾. سورة الرعد: الآية/ ٢٧- ٢٩

يقولُ الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، أي: هلّا أُنزِل على محمدٍ آيةٌ من ربّه تكون علامةً ودليلًا له على نبوَّتِه، وإنما أرادوا آية من الآيات التي اقترحوها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ﴾.[1]

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ﴾.

ولأنهم ما سألوا نزول الآية طلبًا للهدى ولا رغبة في الإيمان، قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: قل لهم يا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ﴾، أي: إن الهدى والضلال بيدِ الله تعالى، يَهدِي مَن يَشَاءُ وَيَعصِمُ وَيُعَافِي فَضلًا، وَيُضِلُّ من يشاء ويخذل ويبتلي عدلًا مع ظهور الآيات، لا رادَّ لأمره ولا معقب لحكمه، وقوله: ﴿مَنْ أَنابَ﴾؛ أي: من رجعَ إليه، وطرح نفسه بين يديه، وانقطعَ بعملِه إليه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾.

هذا نعت لمن أناب، وهم الذين آمنوا بالله تعالى ربًّا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًّا وبالإسلام دينًا، وتخشع قلوبهم، وتسكن وبسماع كلام الله تعالى وتأنس بذكره تعالى.

١ - سورة الإسراء: الآية/ ٩٠- ٩٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

ألا: تنبيه ما سيذكر، وهو بكلام الله القرآنِ تسكنُ القلوبُ، وترتاح النفوس، فحالهم بخلاف حال المشركين الذين يشمئزون بذكر الله تعالى، ويستبشرون بذكر أوثانهم.

قال قتادةُ: أي: تَهَشُّ إلى ذكرِ اللَّهِ وتستأنسُ به.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾.

أي: الذين آمنوا بالله تعالى لهم طِيْبُ العيش، ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾؛ أي: حسنُ مرجعٍ ومنقلَبٍ إلى كرامةِ اللَّهِ تعالى في جنته.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلَاّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾. سورة الرعد: الآية/ ٣٠، ٣١

متعلق الكاف في قوله: ﴿كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ﴾، هو قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، والمعنى: كما أن الله تعالى يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب، أرسلناك في هذه الأمة التي سبقتها في الزمن أمم لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك من كتاب ربك، فمن آمن بك وبما أرسلت به فهو ممن هداه الله تعالى بفضله، ومن كفر بك وبما أرسلت به فهو ممن أضله الله تعالى بعدله، ولا يظلم ربك أحدًا.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ﴾.

﴿وَهُمْ﴾، يعني المشركين يكفرون بالرحمن أي: بالله تعالى، فاسم الرحمن علم على ذات الله تعالى، والمعنى: أنهم في حقيقة الأمر لا يؤمنون بالله تعالى، ولا بشيء من أسمائه وصفاته؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُوراً﴾.[1]

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلَاّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ﴾.

أي: قل لهم يا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿هُوَ رَبِّي﴾، أي: الرحمن ربي لا رب لي سواه، وتقديم الضمير للتخصيص، ﴿لا إِلهَ إِلَاّ هُوَ﴾، لا معبود بحق سواه، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: عليه وحده اعتمدْتُ، وتقديم الجار والمجرور لقصر التوكل عليه دون ما سواه، ﴿وَإِلَيْهِ مَتابِ﴾؛ أي: وإليه مرجعي في الأمورِ كلِّها.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى﴾.

١ - سورة الفرقان: الآية/ ٦٠

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أي: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ﴾، عن مواضعها وأماكن رسوها، ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾، أي: شققت حتى تتصدع وتتزايل قطعًا قطعًا، ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى﴾، فتسمع وتجيب، لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف، وحذف جواب (لو) لكونه معلومًا، وأظهر من أن يُتَنَازعُ فيه لما له من سلطان قاهر على القلوب.

﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾.

أي: بل لله تعالى وحده الأمر كله، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا رادَّ لأمره، ولا معقب لحكمه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾. سورة الرعد: الآية/ ٣١

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾.

اختلف العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾، فقال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ والحسنُ وقتادةُ وابن زيدٍ: المعنى: أفلمْ يعلم، وقيل: هي لغة قوم من النخع.

وقيل: إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه، لأنّ اليائس عن الشيء عالم بأنه لا يكون، كما استعمل الرجاء في معنى الخوف، والنسيان في معنى الترك لتضمن ذلك.

قال سحيم بن وثيل الرياحي:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ يَيْسِرُونَنِي ***** أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

ويدل عليه أن عليًّا وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرءوا: (أفلم يتبين).[1]

وقيل المعنى: أفلمْ ينقطعْ طمعُ الذين آمنوا مِن خلافِ هذا الذي ذكرناه لعلمه بصحَّتِه، والعلمُ بالشَّيءِ يوجِبُ اليأسَ مِن خلافِه.

قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون اليأس في هذه الآية على بابه، وذلك أنه لما أبعد إيمانهم في قوله: وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً الآية – على التأويلين في المحذوف المقدر– قال في هذه الآية: أفلم ييئس المؤمنون من إيمان هؤلاء الكفرة، علما منهم أَنْ لَوْ يَشاءُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً.[2]

١ – تفسير الكشاف (٢/ ٥٣٠)

٢ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٣١٣)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾.

قال ابنُ عبَّاس: ﴿قَارِعَةٌ﴾: عقوبة، وقال قتادة: بليَّة.

والمعنى: لا تزال القوارع والمصائب تصيب الذين كفروا في الدنيا، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.[1]

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾.

أي: إن الله لا ينقض وعده لرسله والذين آمنوا معهم بالنصرة في الدنيا والآخرة.

١ - سورة الأحقاف: الآية/ ٢٧

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾. سورة الرعد: الآية/ ٣٢، ٣٣

يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾، كما اسْتُهزِئَ فلا تحزن فلك فيمن سبقك من المرسلين أسوة، وهي عادة الملأ والمترفين مع الرسل.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ﴾.

الإملاء: الإمهال على جهة الاستدراج، وأصله من الملاوة وهي المدة من الزمن، ومنه الملوان وهما الليل والنهار؛ أي: فأمهلتهم مدة من الزمان في خفض وأمن ودعة، ثم اخذتهم أخذة رابية فلم تبق منهم عين تطرف، فكيف كان عقابي لهم؟ وكيف كان أخذي لهم؟ وهو سؤال الغرض منه التعجيب من شأنهم، وهو متضمن الوعيد الشديد لمشركي قريش أن يحل بهم ما حل بالأمم البائدة من العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.[1]

وعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾».[2]

﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾.

أي: أفمن هو حفيظ رقيب على كل نفس يعلم ما عملت من خير وشر، ولا يخفى عليه من عباده خافية، وقائم بحفظِ أرزاقِ جميعِ الخلقِ، كمن ليس كذلك؟

---

١ - سورة الحج: الآية/ ٤٨

٢ - رواه البخاري- سورة هود، باب قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، حديث رقم: ٤٦٦٨

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وهو سؤال الغرض منه الإنكار، وحذف الجواب لظهوره، وعدم المنازعة فيه.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾.

أي: وجعلوا لله شركاء خلعوا عليهم من صفات الربوبية ما لا ينبغي إلا لله تعالى، ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾، أي: اذكروهم لنا، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا، هل فيهم من له من الأسماء والصفات ما لله تعالى؛ فإن الله تعالى هو الخالق الرازق المحيي المميت، الواحد القهار.

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

أي: أم تنبئون الله تعالى بما لا وجود له؛ لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلم الله ذلك؛ فأنه تعالى لا تخفى عليه خافية ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾، أم تتكلمون بما لا تعلمون، وتهرفون بما لا تعرفون؟

قال مجاهد: بظن من القول.[1]

١ - تفسير مجاهد (ص: ٤٠٨)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ﴾. سورة الرعد: الآية/ ٣٣، ٣٤

قوله تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾.

(بل) تفيد الإضراب، والمعنى: ليس كما يزعم هؤلاء المشركون فليس لله تعالى شركاء من خلقه، ولا عند هؤلاء المشركين من علم ولكن زُيِّن للمشركين الذين يدعون من دونه إلهًا، افتراؤُهم وكذبُهم على الله تعالى.

عن مجاهد قوله: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾. قال: قولُهم. يعني: الشرك بالله.

﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾.

قرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ بضمّ الصَّاد: ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾؛ أي: وصرفَهُم الشَّيطان عن سبيلِ اللَّهِ، ولم يرد الله تعالى هدايتهم، وقرأ الباقونَ بفتحِها: ﴿وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾؛ أي: لما أعرضوا عن توحيد الله لما زين لهم ما فيه من الشرك وأنه حق، دَعَوا إليه وصَدّوا الناس عن الإيمان واتباع سبيل الرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾.

هذه الآية كقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٨٨]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.[1]

﴿لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾.

أي: بما يقاسونه من ضيق الصدر وضنك لعيش، وبما يقع لهم من القتل والأسر بأيدي المؤمنين.

١ - سورة النحل: الآية/ ٣٧

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ﴾.

أي: ولعذاب الآخرة، أعظم مشقة، وأشد إيلامًا، وهو مع ذلك دائم لا ينقطع، وليس لهم من يدفع عنهم عذاب الله تعالى إذا نزل بهم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ﴾. سورة الرعد: الآية/ ٣٥

يطلق المثل في كتاب الله تعالى ويراد به عدة معان:

الأول: الشبيه والنظير؛ يقال: مثل ومثل ومثيل، كشبه وشبه وشبيه؛ كما في قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً﴾.[١]

الثاني: ويطلق ويراد القول السائر الذي يمثل مضربه بمورده؛ ومنه قول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ﴾.[٢]

الثالث: ويطلق ويراد العبرة والعظة؛ كما في قول الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾.[٣]

الرابع: ويطلق ويراد به الحجة والآية؛ كما في قول الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾.[٤]

الخامس: يطلق المثل ويراد به صفة الشيء؛ كما في هذه الآية: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾، والمعنى: صفة الجنة....

وأنكر المبرد أبو علي الفارسي أن يأتي المثل بمعنى الصفة وقالا: ودلالة اللغة تدفع ذلك، ولا يوجد المثل في اللغة بمعنى الصفة، إنما معنى المثل الشبه، في جميع مواضعه ومتصرفاته.

---

١ - سورة الجمعة: الآية/ ٥

٢ - سورة الرحمن الآية/ ٦٠

٣ - سورة الزخرف: الآية/ ٥٦

٤ - سورة الزخرف: الآية/ ٥٩

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والراجح: أن المثل يطلق ويراد به الصفة كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وكما ذكر ذلك المفسرون وعلى رأسهم ابن جرير الطبري رحمه الله؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذه "الأمثال" تارة تكون صفات وتارة تكون أقيسة.[1]

وقال ابن قتيبة: المثل الشبه في أصل اللغة، ثم قد يصير المعنى صورة الشيء وصفته، يقال: مثلت لك كذا، أي: صورته ووصفه.[2]

قلنا: إن لفظ: (مثل) يطلق ويراد به الصفة، فيكون معنى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾، صفة الجنة، ومنه قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧]؛ أي: ولله الصفةُ العُليا.

ويكون معنى الكلام: وَصْفُ الجنةِ التي وعد الله المتقين صفةٌ تجرى من تحتها الأنهار.

﴿أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها﴾.

أي: ما يُؤكَلُ فيها دائمٌ لا يَنْقَطِعُ ولا يزول عن أهلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، ولا يزول ظلها لأنها لا شمس فيها؛ كما قال تعالى: ﴿لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً﴾.[3]

﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ﴾.

أي: تلك الجنةُ التي وصفها الله تعالى، عاقبةُ الذين اتَّقَوْا اللَّهَ، فاجتنبوا معاصيَه وأدَّوا فرائضَه، ﴿وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ﴾؛ وعاقبة الكافرين النار.

١ - مجموع الفتاوى (١٤/ ٥٨)

٢ - التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ١٨)

٣ - سورة الإنسان: الآية/ ١٣

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾.

أي: وأهل الكتاب الَّذين أسلموا كعبد الله بن سلام ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: بالقرآنِ؛ لموافقةِ كتابِهم، ولما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به.

﴿وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾.

أي: ومن طوائف اليهود والنصارى من يجحد بعض من أنزل إليك حسدًا من عند أنفسهم وبغيًا.

قال مجاهد: ﴿وَمِنَ الْأَحْزابِ﴾ اليهود والنصارى، من ينكر بعض ما جاءك من الحق.

﴿قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾.

أي: قل لهم يا محمد إنما أمرت أن أعبد الله تعالى وحده لا شريك له، ﴿إِلَيهِ أَدْعُو﴾، أي: وأمرت أن أدعو الناس إلى توحيده وعدم الشرك به، ﴿وَإِلَيهِ مَآبِ﴾، أي: وإليه مرجعي ومصيري.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ مَا جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَاّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾. سورة الرعد: الآية/ ٣٧ – ٣٩

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم، كذلك أنزلنا إليك القرآن حكمًا عربيًّا، أي بلسان عربي، والمراد بالحكم ما فيه أحكام شرعية تكليفية؛ ولأنه يفصل بين العباد، ولما كان القرآن سببًا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة.

قال ابن عباس: يريد ما فيه من الفرائض.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ مَا جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ﴾.

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ولئن اتبعت أهواءهم بعد ثبوت العلم بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ما لك مِنَ اللهِ مِنْ وليٍّ يتولى أمرك، ولا من يقيك عذاب الله تعالى، ولا يلزم من الشرط وقوع المشروط؛ لأنه معصوم صلى الله عليه وسلم، ولكنه حسم لأطماع المشركين، وتهييج للمؤمنين على الثبات في دينهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً﴾.

لما علق الذين كفروا إيمانهم على نزول آيات اقترحوها على الرسول صلى الله عليه وسلم، وسجل الله تعالى عليهم ذلك بقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الرعد: ٢٧]، رد الله تعالى هنا ببيان حال الرسل، وأنهم بشر من البشر، وأن من كان قبله من الرسل كانوا يتزوجُون ويُولَدُ لهم، كما يتزوج الناس وكما يولد لهم، ويأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كما يفعل الناس، ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعًا من الرسل، بل هو مثلهم وسبيله سبيلهم، وشأنه شأنهم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَاّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: وليس في مقدور رسول من الرسل أن يأتي بآية إلا بإن الله تعالى؛ كما قال تعالى ردًّا عليهم حين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾، فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَاّ بَشَراً رَسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٣]؛ أي: إنما مردُّ ذلك لله تعالى.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ﴾.

أي: لكل أمر قدره الله وقت معلوم في كتاب أثبت فيه، فلا تكون آية إلا بوقت قدره الله في كتاب عنده.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾.

أي: يمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة والصحف التي بأيدي الملائكة، ويثبت ما يشاء، وكل ذلك عنده مدون في اللوح المحفوظ.

قال ابن عباس: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشاءُ وَيُثْبِتُ﴾، يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله. ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾، وجملة ذلك عنده في أم الكتاب.

وروى عكرمة، عن ابن عباس، قال: هما كتابان: كتاب سوى أم الكتاب، يمحو منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب الذي لا يغير منه شيء.[1]

١ - التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٠)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾. سورة الرعد: الآية/ ٤٠، ٤١

يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾، وهو ما توعدهم الله تعالى به من العذاب في قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، فيكون ذلك وأنت حي، أو نتوفينك قبل ذلك، وينزل بهم بأس الله تعالى بعد موتك، أو نؤخر جزاءهم إلى يوم القيامة، فما عليك إلا أن تبلّغ دين الله تعالى، وعلينا حسابهم، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾.[1]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها﴾.

أي: أولم يرى هؤلاء المشركون ما يحدث لهم، من زوال سلطانهم، وذهاب دولتهم، باستلاب ما كان تحت سلطانهم من الأرض؟ والمراد بالأرض هنا أرض المشركين ويكون الألف واللام فيها للعهد، وتكون الرؤية بصرية. قال ابن عباس: أو لم يروا أنا نفتح لمحمد صلى الله عليه وسلم الأرض بعد الأرض.

ويحتمل أن يكون ذلك الخطاب عامًا وأن يكون النقص للأرض التي نعيش عليها، فيكون كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، لا سيما والعلم يثبت أن الأرض كانت مائة ضعف حجمها الحالي، وأنها تنقص من كل أطرافها، لتبقى المسافة من مركز الشمس إلى مركز الأرض ثابتة، فيكون ذلك من الإعجاز العلمي في القرآن.

﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾.

أي: والله يحكم بما يشاء لا يتعقب حُكمَه أحدٌ بنقص ولا تغيير، ولا يرد أحد قضاءه تعالى.

١ – سورة الغاشية: الآية/ ٢١، ٢٢

﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾.

أي: أن الحساب آت لَا ريب، وكل ما هو آت فهو سريع، لأنه متحقق الوقوع.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾. سورة الرعد: الآية/ ٤٢، ٤٣

المكر: إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر.

يقول الله تعالى: وقد مكر الذين من قبل هؤلاء المشركين فأبطل الله تعالى مكرهم، وردَّ كيدهم في نحورهم.

﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً﴾.

أي: فلله تعالى أسباب المكر كله، وهو تعالى خالقه، وبيده تعالى النفع والضر، فلا يملك أحدٌ من الخلق لأحدٍ نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله تعالى.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾.

يعلم الله تبارك وتعالى ما بعمله العباد جميعًا من خيرٍ وشرٍّ، وما يضمرونه في أنفسهم من كيد ومكر وإحسان وبرٍّ.

﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

تهديد ووعيد لمشركي قريش الذين لا ينامون عن الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وسيعلمون لِمَنْ تكونُ عاقبةُ الدَّار المحمودة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾.

يسجل الله تعالى عليهم إنكارهم لرسالة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتكذيبهم له، ووضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم سبب تكذيبهم، وأنه الكفر بالله تعالى الذي حملهم على ذلك.

﴿قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾.

أي: قل لهم يا محمد صلى الله عليه وسلم: حسبي الله شهيدًا علي وعليكم، يشهد علي أني بلغتكم رسالته، ويشهد عليكم تكذيبكم وإعراضكم.

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾.

أي: وعلماء اليهود والنصارى الذين عندهم علمُ الكُتُبِ التي نزلت قبلَ القرآنِ كالتوراة والإنجيل، يعلمون أنه رسول من الله تعالى.

آخر تفسير سورة الرعد والحمد لله.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ١- ٣

سورةُ إبراهيمَ مَكيَّةٌ، وسميت بذلك لاشتمالها على جانب من قصة إبراهيم عليه السلام.

مناسبة السورة لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى أنه أنزل القرآن حكمًا عربيًا في السورة التي قبلها في قوله: ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]، ذكر الله تعالى هنا الحكمة من ذلك فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ﴾ [إبراهيم: ٤]، ولما ذكر الله تعالى أنه ما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فقلا: ﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَاّ بِإِذْنِ﴾ [الرعد: ٣٨]، ذكر الله تعالى هنا ذلك على ألسن الرسل عليهم السلام فقال حكاية عنهم: ﴿وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَاّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، والمناسبات بين السورتين كثيرة لمن تأملها.

سمات السورة:

سورةُ إبراهيمَ شأنها شأن السور المكية افتتحت بالحروف المقطعة، لبيان إعجاز القرآن العظيم، وللتذكير بذلك التحدي الذي أعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور من مثلها مفتريات، أو حتى سورة واحدة، ثم بيان الحكمة من إنزال القرآن، والحكمة من إرسال الرسل، وأن تلك الحكمة هي التي من أجلها أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى قومه، ودعوته قومه إلى الإيمان بالله تعالى وشكر نعم الله تعالى، والتحذير من مغبة الكفر.

ثم بيان حال الرسل مع أقوامهم ودعوتهم إلى الإيمان والتوحيد، ومجادلة أقوامهم لهم وتهديدهم بالطرد من أرضهم إن هم أصروا على إيمانهم، وما آل إليه أمر أولئك الكفار.

ثم تنتقل السورة في تقرير البعث والنشور إلى مشهد من مشاهد الآخرة يسجل تعلق الضعفاء بالذين استكبروا، لينقذوهم من العذاب الأخروي كم كانوا يتعلقون بهم في الدنيا عند الملمات.

ثم مشهد آخر لتقرير البعث والنشور، حين يقوم الشيطان خطيبًا في أوليائه معلنًا براءته منهم وعجزه عن نصرتهم، وملقيًّا باللآئمة عليهم ليزدادوا حسرة على حسرة.

ثم يضرب الله تعالى مثلًا لكلمة التوحيد في رسوخها، وثمراتها، ومثلًا للشرك بالله تعالى في وهنه وضعف وسرعة زواله.

ويتخلل ذلك دلائل وحدانية الله تعالى وقدرته الباهرة وذكر شيء من آياته الدالة على عظمته، وشيء من آلائه ونعمه التي أنعم بها على عباده.

ثم ذكر جانب من قصة إبراهيم عليه السلام في تحقيق العبودية لله تعالى في أروع صورها، وبيان كمال توكله على الله تعالى، وما أكرمه الله تعالى به من الذرية الطيبة على كبر سنه.

ثم تختم السورة ببيان مصير الطغاة الظالمين واغترار بعض الناس بإمهال الله تعالى لهم، وما ينتظرهم من المصير المحتوم، والعاقبة الوخيمة، وذكر شيء من ألوان العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة.

﴿الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾.

﴿الر﴾، تقدم الكلام عن الحروف المقطعة فيما مضى.

﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾.

أي: هذا كتابٌ أنزلناه إليك يا محمدُ صلى الله عليه وسلم، يعنى القرآن ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾، أي: لتخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وورد لفظ كتاب هنا نكرة للتعظيم؛ أي: هذا كتاب عظيم أنزلناه إليك.

ونسب الله تعالى إخراج الناسِ من الظلمات إلى النور إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه هو المتسبب به، وإن كانت الهداية بيد الله تعالى وحده، وهو الذي أذن فيها.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: بإرادة ربهم ومشيئتِه وسابقِ حكمِهِ وقضائِه لك في دعائهم إلى الإيمان.

﴿إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

إلى الطريق الموصل على الله تعالى، وهو دين الإسلام الذي من سلكه أدَّاه إلى الجنة.

﴿الْعَزِيزِ﴾، أي: الذي لا يغالب فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿الْحَمِيدِ﴾؛ المحمود على نعمه وآله، وعلى كل حال.

﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾.

قرأ أبو جعفرٍ نافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿اللَّهُ﴾ رفعًا على الابتداء، وقرأ الباقون بالخفض بَدَلًا من ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، قدم الصفات وأبدل منها الموصوف، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير وتقديره: بإذن ربهم إلى صراط الله العزيز الحميدِ، الذي له ما في السماواتِ. وكان أبو عمرِو بن العلاء، يَقْرَؤُه بالخفضِ، ويَقُولُ: هو مِن المؤخَّرِ الذي معناه التقديم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٣) وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٣، ٤

أي: ووَيلٌ لِلكافِرِينَ الذين يُؤْثرون الحياةَ القريبةَ المدَّةِ السريعة الزوال، ومتاعها وشهواتِها على الحياة الآخرة الباقية التي لا ينقطعُ نعيمُها.

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أي: ويمنعون النَّاسَ أن يؤمنوا بالله ويسلكوا سبيل مرضاته، ويحولون بينهم وبين إقامة دينه.

﴿وَيَبْغُونَها عِوَجاً﴾.

أي: ويريدون أن تكون تلك السبيل التي يسلكها الناس معوجة لا استقامة فيها، بتحريف دين الله تعالى.

﴿أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾.

لا شك أنه من هذا شأنه فهو موغل في الضلال، ولا يرجى لمثله الرجوع إلى الجادة، وإلى الاستقامة.

ووصفَ الضَّلال بالبُعْدِ؛ لأنَّه فعل الضَّالِّ وهو الذي تباعد عن الطَّريق، فوُصف به فعله للمبالغة؛ كقولهم: جَدَّ جَدُّه.

﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.

أي: وما أرسلنا في الأمم الخالية من رسول إلا بلغةِ قومه الذين بُعِثَ فيهم، واللسان: اللغة وما به التخاطب، أطلق عليها اللسان من إطلاق اسم المحل على الحال به، مثل: سال الوادي، ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، ما يدعوهم إليه، فيَفقهوا وتلزمهم الحجة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "لَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا بِلُغَةِ قَوْمِهِ".[1]

﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾.

أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله من يشاء حكمة منه وعدلًا، ويهدي من يشاء إلى الحق رحمه منه وفضلًا.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وهو تعالى ﴿الْحَكِيمُ﴾، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، وهو تعالى ﴿الْحَكِيمُ﴾، في أقوله وأفعاله وتشريعاته، يعلم من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل للهداية.

١ – رواه أحمد– حديث رقم: ٢١٤١٠، ورجاله رجال الصحيح، إلّا أنه من رواية مجاهد عن أبي ذر، ومجاهد لم يسمع من أبي ذرّ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

سورة إبراهيم: الآية/ ٥، ٦

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا﴾، اللام في: (لقد) لام القسم؛ أي: أقسم لقد أرسلنا موسى بآياتنا، أي: بالمعجزات الباهرات، والدلائل القاطعات على وحدانية الله، وصدق رسوله موسى عليه السلام، قال مجاهد: هي التسع الآيات؛ والمعنى: أرسلناه كما أرسلناك يا محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾.

(أن) هنا تفسيرية، أي: بأن أخرج قومك من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان؛ كما أنزلنا إليك يا محمد كتابًا لتخرج الناس من الظلمات إلى النور.

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾.

أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يذكر قومه بنعم الله تعالى ويعددها عليهم، ويذكر لهم الوقائع التي وقعت للقرون الغابرة، وكيف أهلك الله تعالى تلك الأمم حين كذبوا الرسل عليهم السلام.

قال ابن عباس: بوقائع الله في الأمم السالفة، يقال: فلان عالم بأيام العرب، أي بوقائعها.

وقال ابن زيد: يعني الأيام التي انتقم فيها من الأمم الخالية.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

الصبَّار: الكثير الصبر، والشَّكور: الكثير الشُّكر، وإنما خصه الله تعالى بالذكر، لانتفاعه بآيات.

﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أي: واذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم؛ أي: اذكروا إنعام الله عليكم حين أنجاكم من آل فرعون إذ ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ﴾، عطف: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ﴾ على: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ﴾، لبيان أن الذبح كان لونًا من ألوان العذاب الذي مارسه آل فرعون على بني إسرائيل، وذكر في البقرة بدون الواو لبيان أن ذبح الأبناء كان هو العذاب المذكور، فهو هناك بدل من العذاب، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ﴾، أي: ويتركون نساءكم أحياء لإهانتهن واسترقاقهن للخدمة.

﴿وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

أي: وفيما ذكر محنة عظيمة، يمتحنكم بها الله تعالى، واختبار عظيم من ربكم لينظر كيف تفعلون.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٧، ٨

في الكلام حذف اختصار تقديره: واذكروا إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُم، و(تَأَذَّنَ) تفَعَّلَ من (آذن)، أي: أعلمَ.

قال ابن جرير: والعربُ ربما وضَعت تفعَّل موضع أفعل، كما قالوا: أَوْعَدتُه، وتَوَعَّدتُه. بمعنًى واحدٍ، وآذن: أعلَم، كما قال الحارثُ بن حِلِّزَةَ:

آذَنَتْنا ببَيْنِها أسماءُ ... رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواءُ

يعنى بقوله: آذَنَتنا، أعلَمتنا.[1]

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

أي: لئن شكرتم ربكم على ما أنعم به عليكم من نعمه الظاهرة والباطنة لأزيدنكم من فضلي ونعمي.

﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ﴾.

ولئن كفرتم نعمي التي أنعمت بها عليكم وجحدتموها، لأسلبنكم نعمي ولأعذبنَّكم على كفركم نعمي، وإن عذابي لشديد.

﴿وَقالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾.

لعل قول موسى لقومه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ .....﴾، سببه ما كانوا يجهرون به من حجد نعم الله تعالى، وإظهار الغنى عنه تعالى، فقال لهم موسى عليه السلام ذلك تهديدًا لهم.

---

١ - تفسير الطبري (١٣ /٦٠١)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

فإن الله لغني عنكم وعن خلقه جميعًا لا تنفعه طاعة الطائعين ولا معصية العصاة المذنبين، وهو تعالى محمود على كل حال بجميل أفعاله، وجليل صفاته.

روى مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تبارك وتعالى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».[1]

١ - رواه مسلم- كِتَابُ الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، حديث رقم: ٢٥٧٧

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَاّ اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٩

يحتمل أن يكون هذا من كلام موسى عليه السلام، فيكون داخلًا تحت التذكير بأيام الله تعالى، وقيل هو كلام مستأنف من كلام الله تعالى، يقص الله تعالى على العباد ومنهم مشركوا قريش أخبار الأمم البائدة، والقرون الغابرة، وحالهم من رسل الله عليهم السلام، وكيف قابلوا دعوتهم، ويبين تبارك وتعالى سبب مصارع أولئك الغابرين، فيقول: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، واستفتاح الكلام بهذا السؤال الغرض منه الإنكار عليهم لأنهم يعلمون ما أصاب قوم نوح من الغرق بالطوفان، وما جرى لعادٍ من الإهلاك بالريح، وما أصاب ثمود من الهلاك بالصيحة، وهم يمرون على ديارهم، وما جرى للذين من بعدهم من الأمم الغابرة والقرون البائدة، كطسم وجديس، وأهل مدين وأصحاب الرس، ومع ذلك سلكوا سبيلهم في الإعراض والتكذيب.

﴿لا يَعْلَمُهُمْ إِلَاّ اللَّهُ﴾.

بدأ الكلام بالتفصيل ثم الإجمال لبيان أنهم من الكثرة بحيث لا يحيط بهم إلا الله تعالى، ولبث الرعب في قلوب المخاطبين من المشركين، أنهم لم يعجزوا الله تعالى لكثرتهم.

﴿جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ﴾.

جاءتهم رسلهم بالأدلة الواضحات على صدق دعوتهم، ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ﴾، يحتمل أن يكونوا فعلوا ذلك سخرية منهم واستهزاءً، كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه؛ قال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقال ابن مسعود، وابن زيد أي: جعلوا أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم ليعضوها غيظًا مما جاءت به الرسل. كما حكى الله تعالى عن المنافقين بقوله: ﴿وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾.[1]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعودٍ، قَالَ فِي قولهِ تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ﴾، قَالَ: هَكَذَا وَرَدَّ يَدَهُ فِي فِيهِ، قَالَ: غَيْظًا وَعَضَّ يَدَهُ.[2]

وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة: معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم.

عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ﴾، قَالَ: رَدُّوا عَلَى الرُّسُلِ مَا جَاءَتْ بِهِ.[3]

﴿وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾.

أي: أعلنوا الكفر بما جاءت به الرسل، وقالوا: ﴿بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾، سخرية واستهزاءً وتهكمًا؛ كقول المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، ومثله قول اليهود: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾.[4]

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

قالوا ذلك تمويها واستهزاءً فإن الرسل قد جاءتهم بالبينات، فكان كفرهم كفر إباء واستكبار.

١ – سورة آل عمران: الآية/ ١١٩

٢ – رواه الطبري برقم: ٢٠٥٩٥، وعبد الرزاق في التفسير– سورة إبراهيم، رقم: ١٤٠٠

٣ – رواه عبد الرزاق– سورة إبراهيم، رقم: ١٣٩٩

٤ – سورة النساء: الآية/ ١٥٧

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَاّ بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ١٠

لما قال الكفار لرسلهم عليهم السلام: ﴿إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، قالت رسلهم أفي الله شكٌّ؟ ووجوده تعالى أوضح من ضوء النهار؛ كما قيل:

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الإِفْهَامِ شَيءٌ ***** إِذَا احْتَاجَ النَّهارُ إلى دَلِيْلِ

أم في وحدانيته تعالى وتفرده تعالى بالخلق والإرادة، واستحقاقه دون ما سواه للعبادة شكٌّ؟

فقد فُطِرَ العباد على التوجه له تعالى وحده عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَاّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وأقر له بالوحدانية والخلق والتدبير أصحاب العقول السليمة والفطر السوية المستقيمة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، والغرض من السؤال الإنكار؛ فإنه لا ينكر وجود الخالق، وألوهيته وحده إلا معاند مكابر.

﴿فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾.

ومع أن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى دليل، فقد استدل الرسل عليهم السلام بدليل الخلق والإيجاد، ألوهية الله تعالى، واستحقاقه وحده للعبادة دون ما سواه؛ فإن الله تعالى خالق السموات والأرض ومنشؤهما من العدم، ومن كان كذلك فهو أحق بالعبادة؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾.[1]

١ - سورة النحل: الآية/ ١٧

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

يدعوكم ربكم إلى توحيده وعبادته ليغفر لكم ما اقترفتموه من الشرك، ويؤخركم إلى ما قدره لكم من الآجال التي سميت لكم في اللوح المحفوظ، ولا يعاجلكم بالعقوبة.

﴿قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَاّ بَشَرٌ مِثْلُنا﴾.

أي: قال هؤلاء الكفار لرسلهم: ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا استبعادًا منهم أن يرسل الله تعالى بشرًا، وهي شبهة عرضت لكل الأمم حين جاءتهم الرسل.

﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا﴾.

تريدون أن تصرفونا عما كان يعبد آباؤنا، بغض النظر عن تلك الآلهة المزعومة أتستحق العبادة أم لا؟

كبر عليهم أن يكون آباؤهم على ضلال؛ كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾.[1]

﴿فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾.

أي: فأتونا بحجة قاطعة على صدق دعواكم، يريدون مما اقترحوه من الآيات والبراهين.

١ - سورة الزخرف: الآية/ ٢٣

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَاّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَما لَنا أَلَاّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى مَا آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ١١، ١٢

قالت لهم رسلهم ما نحن إلا بشرٌ مثلكم كما قلتم، ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَاّ بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾، ولكن الله تعالى يتفضل على من يشاء من عباده بالرسالة والنبوة؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وتخصيصنا بذلك، فضل من الله تعالى تفضل به علينا؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ولا يلزم من كوننا بشرًا انتفاء الرسالة.

﴿وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَاّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وما كان لنا أن نأتيكم بآية بينةٍ على ما ندعوكم إليه، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. أي: إلا بأمر الله تعالى.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وعلى الله تعالى وحده اعتماد المؤمنون، ونحن لا نثق إلا بالله، ولا نعتمد على أحدٍ سواء.

﴿وَما لَنا أَلَاّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا﴾.

وما الذي يحول بيننا وبين اعتمادنا على الله والثقة في وعده لنا بالنصر والتمكين في الدنيا، والفوز والنجاة في الآخرة، وقد بين الله تعالى لنا معالم ديننا، وأرشدنا إلى ما فيه فلاحنا.

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى مَا آذَيْتُمُونا﴾.

ثم أقسموا لهم بالله تعالى على ثباتهم على دينهم ودعوتهم، فإن اللام في ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾، هي اللام الموطئة للقسم، وأكدوا ذلك القسم بنون التوكيد ليقطعوا رجاءهم من إذعان الرسل لتهديهم ووعيدهم، وإيذائهم وبطشهم.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

أي: ومن كان بالله تعالى واثقًا، وبوعده موقنًا فلا يخشى غيره، ولا يرجو سواه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ١٣- ١٥

يخبر الله تعالى عمَّا جرى بين الرسل وأممهم الذين أرسلوا إليهم، بأن الذين كفروا قالوا لرسلهم: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا﴾؛ أي: نقسم لنخرجنكم من بلادنا فإن اللام في: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ﴾، هي الموطئة للقسم، وأكدوا قسمهم مبالغة في التهديد والوعيد، ونسبة الأرض إليهم في قولهم: ﴿مِنْ أَرْضِنا﴾؛ لأنهم لا يرون لمن خالفهم في الاعتقاد حقًّا في العيش معهم، وهو منطق الطغاة في كل عصرٍ ومصرٍ؛ كما قال قوم لوط عن لوط عليه السلام ومن معه: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.[1]

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا﴾.

أي: إلا أن ترجعوا، أو حتى ترجعوا إلى ديننا، ولم يريدوا حقيقةَ الرُّجوع، فإنَّهم ما كانوا فيها قَطُّ.

﴿فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: بشرهم ربهم تبارك وتعالى بزوال سلطان أولئك الطغاة الظالمين واستئصال شأفتهم.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ﴾.

ثم بشرهم بشارة أخرى بتمكينهم من الأرض التي توعدهم الظالمون بإخراجهم منها، ثم أخبر الله تعالى أنها سنته تعالى في عباده؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾.[2]

---

١ - سورة النمل: الآية/ ٥٦

٢ - سورة النور: الآية/ ٥٥

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾؛ أي: واستنصروا الله على أعدائهم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾، وقيل: أي: سألوا اللَّه الحُكْمَ والقضاء بينهم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾. [الشعراء: ١١٧- ١١٨]، وهَلَك كل متكبرٍ جائرٍ لا يرى لأحدٍ عليه حقًّا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ١٣، ١٧

﴿مِنْ وَرائِهِ﴾؛ أي: مِن أمامِه، ولفظ: "وراء" من ألفاظ الأضداد، يأتي بمعنى: أمام وخلف؛ ومنه قول الله تعالى: ﴿وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ [الكهف: ٧٩]، قال قتادةُ: أمامَهم.

وقال الشاعر:

أتُوعِدُنِي وَرَاءَ بَنِي رِياحٍ ***** كَذَبْتَ لَتَقْصُرَنَّ يَداكَ دُونِي

يعني: أتُوعِدُنِي أمامَ بنى رياحٍ.

وقيل: إنما يَجُوزُ ذلك يعني: اعتبار هذا اللفظ من الأضداد في المواقيتِ من الأيامِ والأزمنةِ؛ كقولِ القائلِ: وراءَك بَرْدٌ شديدٌ. وبينَ يديْك حرٌّ شديدٌ؛ لأنك أنت وراءَه، فجاز؛ لأنه شيءٌ يأتي، فكأنه إذا لَحِقَك صار مِن ورائِك، وكأنك إذا بَلَغْتَه صار بين يديك.

﴿وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ﴾.

أي: ويسقى كل جبار عنيد في جهنم من ماءٍ هذا الماء عبارة عن صديد أهل النار، وقيحهم.

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ﴾.

أي: يتحساه جَرعًا لا مرة واحدة لشدة مرارته وشدة حرارته، ولا يكاد يبتلعه، يقال: ساغ الشراب في الحلق إذا كان سلسًا سهلًا، ويقابله الغَصُّ.

وقال الشاعر:

فَسَاغَ لِيَ الشَّرَابُ وَكُنْتُ قِدْمًا ***** أَكَادُ أَغَصُّ بِالْمَاءِ الْقَرَاحِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ﴾.

أي: وتجتمع عليه أسباب الموت من كل جهة، فليسَ في جسدِهِ موضعُ شعرةٍ إلَّا والموتُ يأتيه منها مِن شدَّةِ العذابِ حتَّى يجدَ طعمَ الموتِ وكُرَبَهُ.

قال ابن عباس: أي يأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحته ومن قدامه وخلفه.

﴿وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ﴾.

أي: لا يموتُ حقيقةً فيستريحَ، ولا هو ينعم بالعيش؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤]، ﴿وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ﴾. أي: ومن أمامه عذاب شديد متواصل الآلام، متجددٌ؛ كما قال تعالى: ﴿لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها﴾.[1]

١ - سورة فاطر: الآية/ ٣٦

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ١٨

مناسبة الآية لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى حال الذين كفروا بربهم، وكذبوا رسلهم عليهم السلام، وما أعده الله تعالى لهم من العذاب في النار، ربما يتوهم بعض الناس أن من كان يطعم الطعام، ويعتق الرقاب، ويقرى الضيف، ويغيث الملهوف، ويعين على نوائب الدهر، من هؤلاء المشركين أن ذلك سينفعه يوم القيامة، فضرب الله تعالى لأعمالهم هذا المثل، لبيان حكم تلك الأعمال التي عملوها حال كفرهم.

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار التي عملوها من البر حال كفرهم بالله وعبادتهم غيره تعالى، أنهم لا ينتفعون منها بشيء، وإنما يجعلها الله تعالى هباء منثورًا.

المَثَلُ مستعارٌ للصفَّة التي فيها غرابة، وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾، مبتدأٌ خبره محذوف؛ وتقديره: فيما يُتلَى عليكم مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا.

﴿أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ﴾.

قال الفرَّاءُ: أضافَ المثَلَ إلى الكفَّارِ، والمثَلُ لأعمالِهم، وتقديرُهُ: مَثَلُ أعمالِ الَّذين كفروا، ونظيره: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]؛ أي: أحسنَ خلقَ كلِّ شيءٍ، وقوله: ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]؛ أي: ترى وجوهَ الَّذين كَذبوا على الله مسودَّةً.[١]

أي: مثل أعمالهم التي عملوها من أعمال البر كمثل الرماد الذي احتملته الريح في يوم شديد العواصف، فطار في الهواء وتناثر حتى لم يبق له أثر؛ ومما يدل على هذا ما ثبت عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ

١ - معاني القرآن للفراء (٢/ ٧٢)

اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ».[1]

﴿ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾.

أي: ذلك هو الخطأ البين، والانحراف الشديد الذ أوغل صاحبه فيه في البعد عن السراط المستقيم.

١ – رواه مسلم– كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل، حديث رقم: ٢١٤

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ١٩، ٢٠

يخبر الله تعالى عن شيء من دلائل قدرته الباهرة، وحكمته العظيمة من الخلق، فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، أي: ألم تعلم، والخطاب عام لكل من يستمع لكلام الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: خلق الله تعالى السماوات والأرض لحكمة بالغة، وهي دلالتها توحيد الخالق وحكمته تبارك وتعالى، وليس كما يظن المشركون أنها مخلوقة باطلًا لغير حكمة.

قال ابن عباس: يريد بالعدل لأنه هو الحق، وكل ما جاء من عنده هو الحق، وعنه قال: يريد بالعدل والثواب والعقاب.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يُونُسَ: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلًا﴾.[1]

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

أي: إن كان الله تعالى قادرًا على خلق السماوات والأرض بالحق، فهو تعالى قادر على إهلاك الناس جميعًا، والمجيء بآخرين يخلقهم الله تعالى من العدم.

﴿وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

وليس ذلك بممتنع على الله تعالى، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه.

١ - سورة ص: الآية/ ٢٧

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا مَا لَنا مِنْ مَحِيصٍ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٢١

والبروز في اللغة: الظهور بعد الخفاء، يخبر الله تعالى عن العباد عند خروجهم من القبور للعرض على الله تعالى، أنهم برزوا من قبورهم يوم القيامة، والبراز المكان الواسع لظهوره، فاجتمعوا جميعًا، فلم يغب منهم أحدٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ [الكهف: ٤٧]؛ أي: ظاهرة لأعين الناظرين لا يسترها شيء.

﴿فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أي: فقالَ الأتباعُ للرُّؤساءِ الذين كانوا يَسْتَكْبِرون عن عبادة الله في الدنيا، واتِّباعِ الرسل، ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾، أي: كنا لكم طائعين، فلم نعص لكم أمرًا، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ فهل عندكم لنا غَناءٌ من عذاب الله؟ هل تدفعون عنا من عذاب من شيء؟

وهو استفهام معناه التوبيخ والتقريعُ، لأنهم علموا أنهم لن يغنوا عنهم شيئًا.

وقوله: ﴿مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، لفظة: ﴿مِنْ﴾ الأولى بيانية، والثانية للتبعيض.

﴿قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ﴾.

أي: قال الرؤساء الذين استكبروا لو بين الله تعالى لنا سبيل إلى النجاة من العذاب اليوم لبيَّنَّاه لكم.

وقيل: المعنى: لو وفَّقنا اللَّهُ للإيمانِ واهتدينا في دارِ الدُّنيا لهديناكم؛ أي: بيَّنَّا لكم طريقَ الهُدى.

﴿سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا مَا لَنا مِنْ مَحِيصٍ﴾.

الجزع: حزن مشوب باضطراب؛ أي: قالوا لهم قطعًا لرجائهم، يستوي اليوم الجزع والصبر، فلا ينفعنا الجزع كما لا ينفعنا الصبر، ﴿مَا لَنا مِنْ مَحِيصٍ﴾؛ أي: ما لنا من عذاب الله تعالى من مفرٍّ، والحَيْص: هو العدول على جهة الفِرار؛ ومنه قوله في الحديث: "فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ"؛ أي: نفروا نفرتها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٢٢

مناسبة الآية لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى المناظرة التي وقعت بين الضعفاء والذين استكبروا، اعقبها الله تعالى بتلك الخطبة التي تبرأ فيها إبليس من أتباعه من الإنس والجن؛ لتزداد حسرتهم وينقطع رجاؤهم، وينطفئ كل بصيص من أمل في الخروج من النار.

﴿وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾.

وقال الشيطان الرجيم لأتباعه من الجن والإنس لما استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾.

أي: إن الله وعدكم على ألسنة رسله أن النجاة فيمن آمن به واتقاه، وصدق رسله، ووعدكم ألا حساب ولا جزاء، وانه لا جنة ولا نار، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، وكما قال تعالى: ﴿الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فصدقكم الله وعده، ووعدتكم فأخلفتكم.

﴿وَما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

ما كان لي دليل فيما دعوتكم إليه ولا حجة فيما وعدتكم به، ولم يسلطني الله عليكم بالقهر، وإنما دعوتكم للكفر، فأقبلتم مهرولين، واستجبتم لي مسرعين.

﴿فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

فلا تلقوا باللوم عليَّ لوسوستي لكم، ولوموا أنفسكم فقد جاءتكم الرسل بالحجج والبينات، فجعلتموها وراءكم ظهريًّا، واسرعتم إلى إجابتي لي بلا حجة ولا برهان.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾.

ما أنا بمغيثِكم من العذاب ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾، وما أنتم بمغيثيَّ منه.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾.

قال: إني كفرت بإشراكِكم إيايَ في الدنيا معَ اللهِ في العبادة؛ وتبرأْتُ من شرككم واستنكرتُه؛ كما كانت عادته مع الكفار العصاة؛ كما قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، ثم قال تبكيتًا لهم: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٢٣

لما ذكر الله تعالى حال الكفار في النار وبراءة بعضهم من بعض، وبراءة إبليس منهم، ذكر تعالى هنا حال المؤمنين وما أعده الله تعالى لهم من النعيم المقيم في جنات الخلود.

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: وأدخلت الملائكةُ الذين آمنوا بالله تعالى وعملوا الطاعات امتثالًا لأمر ربهم، جناتٍ تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، لا يزولون عنها، ولا تزول عنهم، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: بأمر ربهم تبارك وتعالى، والتعبير باسم الرب تعالى مشعر بأن تعهدهم بالرعاية لا يفارقهم حتى يدخلوا الجنة.

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

أي: يسلم الله تعالى عليهم في الجنة، والسلام من الله تعالى لهم إثبات السلامة الأبدية والأمن من الآفات، وتحيَّة بعضهم بعضًا في الجنَّة سَلامٌ؛ كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، كأنهم لم يطمئنوا إلا بعد دخول الجنة، أمَّا تحيَّة الملائكة لهم فكانت قبل دخولهم الجنة وبعد دخولها؛ لوقوعها من خَزَنة الجنَّة كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.[1]

١ - سورة الزمر: الآية/ ٧٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَها مِنْ قَرارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشاءُ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٢٤- ٢٧

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، بمعنى ألم تعلم. والسؤال هنا للإنكار على المخاطب لأنه منزلة من لم يعلم فأنكر عليه عدم العلم، وهو كناية عن التحريض على العلم بذلك المثل.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾.

قال ابن السِّكِّيتِ: الْمَثَلُ: لَفْظٌ يخالفُ لفظَ المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ.

وقال الراغب الأصفهاني: الْمَثَلُ عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة، ليبيّن أحدهما الآخر ويصوّره.[1]

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ﴾.

شبه الله تعالى الكلمة الطيبة وهي كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وكما أن الشجرة الطيبة راسخة ممتدة الجذور في باطن الأرض، فإن أصل كلمة التوحيد الإخلاص لله تعالى، وكما أن فروع تلك الشجرة مرتفعة في السماء، فإن فروع كلمة التوحيد خشية الله تعالى، ومحبته، والإنابة إليه وسائر الأعمال الصالحة.

قال ابن عباس في قوله: ﴿مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

١ - المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٥٩)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال الربيع بن أنس: كلمة طيبة: هذا مثل الإيمان. فإن الإيمان الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول: الإخلاص فيه. وفرعها في السماء: خشية الله.

﴿تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها﴾.

أي: تثمرُ في كلِّ وقتٍ بإذنِ اللَّهِ؛ أي: بإيجادِ اللَّهِ ذلك، الحين، اسم للزمان مبهم يعرف بالقرائن. وكذلك الكلمة الطيبة كلمة التوحيد يدوم نفعها وتدوم بركتها، ولا يزال يرفع لصاحبها عمل صالح في كل وقت، صباحًا ومساءً.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: لعلهم يتعظون لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾.

لما ضرب الله تعالى مثلًا لكلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي رسخ أصلها في الأرض وثبت، وارتفعت أغصانها إلى السماء وهي مع ذلك تثمر كل وقت، ضرب هنا مثلًا للكلمة الخبيثة وهي كلمة الكفر بالشجرة الخبيثة التي لا نفع فيها بل لها ضرر بالغ وسم زعاف وهي مع ذلك اجتثت من فوق الأرض؛ أي اقتُلعَتْ، لخبثها وضررها، فلا يحتاج إليها أحد.

﴿مَا لَها مِنْ قَرارٍ﴾.

ليس لها قرار في الأرض؛ لأنَّها قد اجتثَّتْ مِن أصلِها، ولا فروعَ لها في السَّماء؛ لأنَّها مستأصَلةٌ مِن فوقِ الأرضِ؛ لخبثها والرغبة عنها.

وكذلك كلمةُ الكفر خبيثةٌ ممن تلفظِ بها، ولا ينتفع بها صاحبها في الدنيا، وليس له في الآخرة إلا النار من أجلها، و ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾؛ لأنَّها حاصلةٌ مِن شُبَهٍ واهية، وأصولٍ فاسدة.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أي: يوفِّقُ الله تعالى الذين آمنوا للثَّبات على التوحيد ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، في حياتهم وعند احتضارهم، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾، عند السؤال في القبر؛ فإن القبر أول منازل الآخرة.

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ، ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾».[1]

وفي رواية لمسلم عَنه رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ. فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم. فَذَلِكَ قَوْلُهُ عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾».[2]

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: ويخذِلُ الله الكافرين والمشركين، على أن المراد بالظالمين هنا المشركين.

﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشاءُ﴾.

أي: ويتوبُ على من يشاء هدايته من الظَّالمين الكافرين، فيغفرُ لهم ويهديهم، ويغفرُ لمن شاءَ مِن غيرِ توبةٍ، ممن اتصف بظلم العباد من الموحدين، ويذلُّ آخرين بإضَّلالهم، ولا يسأل عما يفعل.

---

١ – رواه البخاري– كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، حديث رقم: ١٣٦٩

٢ – رواه مسلم– كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، حديث رقم: ٢٨٧١

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٢٨، ٢٩

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى حال المؤمنين، وبين نجاتهم، وما آل إليه أمرهم من النعيم المقيم، وذكر حال المشركين، وقص علينا هالكهم، وما آل إليه أمرهم من الخلود في دار الجحيم، بين الله تعالى هنا سبب ضلالهم في الدنيا وسبب عذابهم في الآخرة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً﴾.

الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، وقيل: لكل من يصلح له، يقولُ تعالى: ألم تَرَ يا محمدُ إلى الذين ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾؛ أي: ألم تنظر إلى حال أولئك المكذبين المعاندين، الذين غيَّروا ما أنعَم اللهُ به عليهم مِن نعمةٍ، فجعَلوها كُفرًا، وذلك أن الله تعالى أمتن عليهم ببعثة رسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فقابلوا تلك النعمة بالإعراض والتكذيب.

والسؤال هنا للتعجيب من حال أولئك الكفار الذين قابلوا نعمة الله بالكفر بدلًا من شكرها، وذلك بتكذيبهم محمدًا صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله منهم وأنعم عليهم به.

قال ابن عباس: يريد كفار قريش.

وقال قتادة: هم مشركو مكة، أنعم الله عليهم بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فكفروا به ودعوا قومهم إلى الكفر، وذلك قوله: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾؛ يعني: الذين اتبعوهم.

وعَنْه في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً.....﴾. الآية، قَالَ: كنا نحدث أنهم أَهْل مكة، أبو جهل وأصحابه الذين قتلهم الله يَوْم بدر.[1]

١ - رواه الطبري (١٣/ ٦٧٦)، وابن أبي حاتم- رقم: ١٢٢٧٨

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ﴾.

أي: وأنزَلوا قومَهم يعني: مُشركي قريشٍ دارَ الهلاكِ.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ﴾.

أي: يصلون جهنم دار البوار، وبئس المستقرُّ جهنمُ لَمَن يصلَاها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٣٠

يقولُ الله تعالَى: وجعَل هؤلاء الذين بدَّلوا نعمةَ اللهِ كفرًا لله تعالى أندادًا، والأنداد: جمع نِدٍّ، وهو النظير والمماثل في المجد ورفعة المنزلة.

﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾

قرأ ابنُ كثيرٍ، وأبو عمرٍو، ورويسٌ بخلف عنه: (لِيَضِلُّوا) بفتحِ الياءِ، واللام على هذه القراءة هي لام العاقبة.

وقرا باقي القراء: ﴿لِيُضِلُّوا﴾، بضم الياء، أي: لِيُضلوا هم الناسَ فجعل الإضلال علة لجعلهم لله أندادًا، وإن كانوا لم يقصدوا الضلالَ ولا الإضلالَ، لكنْ لما كانَ نتيجتَه، كانَ كالغرضِ.

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

أي: قل لهم يا محمَّد صلى الله عليه وسلم: تمتَّعوا في الدُّنيا ما شِئْتُم، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، أي: فإنَّ مرجعَكم في عاقبةِ أمرِكُم إلى نارِ جهنَّم.

وقوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ دليلٌ على قلَّةِ مُكْثِهم في الدُّنيا، فإنَّ المتاع يطلق على ما يكون سريع الزوال؛ كما قال تعالى: ﴿مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ [آل عمران: ١٩٧]، قال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾.[1]

قَالَ ابْن عَبَّاس: لَو أَن كَافِرًا كَانَ فِي أَشد بؤس وضر لَا يهدأ لَيْلًا وَلَا نَهَارا، كَانَ ذَلِك نعيما فِي جنب مَا يصير إِلَيْهِ فِي الْآخِرَة، وَلَو أَن مُؤمنا كَانَ فِي أنعم عَيْش، كَانَ ذَلِك بؤسا فِي جنب مَا يصير إِلَيْهِ فِي الْآخِرَة.

[1] - سورة الزمر: الآية/ ١٨

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٣١

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: قل لعبادي وخصهم بالإضافة إليه تشريفًا لهم، الذين آمنوا بي، واستجابوا لك، وأيقنوا أن ما جئتهم به وحي أوحيته إليك، ﴿يُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾؛ أي: يؤدوها في أوقاتها، بأركانها، وواجباتها وشروطها.

﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾.

وينفقوا مما من مال الله الذي آتاهم على من أمروا بالنفقة عليهم من الأهل وذوي القربى، والفقراء والمساكين، حال السر وحال العلانية، ويدخل في ذلك النفقات والواجبة، والزكاة، والصدقات.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾.

من قبل أن يأتي يومُ القيامةِ، حيث لا ينفع مال ولا بنون، وذكر البيع لأنه أسرع أسباب تحصيل المال، ﴿وَلا خِلالٌ﴾، جمع خُلة، وهي أعلى درجات المحبة والود الذي يكون بين اثنين؛ كما قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ﴾.[1]

وقيل المراد بالبيع هنا: الفداء؛ قَالَ أَبُو عُبَيْدَة: يَعْنِي لَا فدَاء فِيهِ، ومما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾.[2]

وقال ابن جرير: يقولُ: وليس هنالك مُخالَّةٌ خليلٍ، فيصفَحُ عمَّن استوجبَ العقوبةَ عن العقابِ لمخالَّتِه، بل هنالك العدلُ والقسطُ. فـ "الخلالُ"، مصدرٌ من قولِ القائلِ: خاللتُ فلانًا، فأنا أُخالِلُه مخالةً وخلالًا، ومنه قولُ امرئ القيسِ:

١ – سورة البقرة: الآية/ ٢٥٤

٢ – سورة البقرة: الآية/ ١٢٣

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صرَفْتُ الهوَى عَنْهُنَّ مِن خَشْيَةِ الرَّدَى ***** ولستُ بِمَقْلِيِّ الخِلالِ ولا قالِ[1]

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ (٣٣) وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٣٢ – ٣٤

لما قَالَ اللهُ تَعَالَى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ.....﴾، ذكر سبحانه وتعالى بعضًا من دلائل وحدانيته تعالى، فذكر دليل الخلق والإيجاد، وذكر شيئًا من نعمه التي أنعم بها على عباده، فهو المستحق للعبادة دون ما سواه، وله الحمد كله دون ما سواه.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾

أي: الله تعالى هو الذي أوجدها من العدم على غير مثال سابق، وافتتاح الكلام بلفظ الجلالة والإخبار عنه بالاسم الموصول للاختصاص، وهو وإن كان أمرًا لا ينازع فيه المشركون، إلا أنه ذكر ذلك لبيان أنه لا يستحق العبادة غيره؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، ولبيان أن النعم المتعلق بذلك الخلق من إزال المطر وتسخير الشمس والقمر وغيرها من الله وحده لا سواه.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾

من هنا بيانية، والرزق معناه هنا القوت، وفي الآية بيان أن الأصل في الأشياء الإباحة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ﴾.

أي: وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ومشيئته تعالى أنى توجهتم، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ﴾، ليستقيم أمركم، وتصلح معايشكم.

---

١ – تفسير الطبري (١٣/ ٦٨٠)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ﴾.

يَدْأبان في سيرهما، لتعلموا عدد السنين والحساب.

﴿وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

وأعطاكم من كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم، من كل ما سألتموه وما لم تسألوه.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

أي: وآتاكم من النعم ما يعجز الخلق عن عدها لكثرتها، فضلًا عن شكرها والقيام بحقها، ومع ذلك فإن الإنسان كثير الظلم، شديد الكفر لنعم الله تعالى.

قال طلق بن حبيب، رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وامسُوا توابين.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٣٥، ٣٦

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما ذم الله تعالى المشركين وأخبر أنهم اتخذوا أوثانًا آلهة من دون الله ليصدوا الناس عن عباد الله تعالى، بقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، ذكر تعالى هنا أن إبراهيم الخليل عليه السلام الذي بنى بيت الله الحرام إنما بناه لتوحيد الله تعالى وحده لا شريك له، محتجًا على مشركي العرب، وأنه عليه السلام تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾.

﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾.

في الكلام حذف اختصار تقديره: واذْكُرْ يا محمدُ صلى الله عليه وسلم إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا، يعنى مكة بلد الله الحرامَ، زاده الله آمنًا وتعظيمًا ومهابة وبرًّا، وشملت دعوته كل شيء فيه من أهله وقاطنيه حتى الصيد.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾.

أي: وامنعني وبَعِّدْني وأولادي أن نعبد الأصنام، يقال: جنبه كذا وجنبه وأجنبه: إذا منعه من الأمر وحماه منه، وحقيقة الكلمة: اجعلني في جانبٍ، ومثله: نحيته؛ أي: جعلته في ناحية.

قال مجاهدٌ: فاسْتَجاب اللهُ لإبراهيمَ دعوتَه في ولدِه، قال: فلم يَعْبُدْ أحدٌ مِن ولدِه صنمًا بعدَ دعوتِه – والصنمُ: التمثالُ المصَوَّرُ، ما لم يَكُنْ صنمًا فهو وَثَنٌ – قال: واسْتجاب اللهُ له، وجعَل هذا البلدَ آمنًا، ورزَق أهلَه مِن الثمراتِ، وجعَله إمامًا، وجعَل من ذريتِه مَن يُقِيمُ الصلاةَ، وتقبَّل دعاءَه، فأراه مناسِكَه، وتاب عليه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾.

أي: ضَلَّ بهنَّ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ، وأضافَ الإضلالَ إلى الأصنام بطريق التَّسبُّبِ؛ أي: إنهن الأصنام كن سببًا في ضلال كثير من الناس عن طريق الإيمان؛ كما يقال: فتنتهم الدنيا وغرّتهم؛ أي: افتتنوا بها واغتروا بسببها.

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: فمن تبعني في توحيد الله تعالى، ومن عصاني وأبى إلا الشرك بالله تعالى فإنك غفور رحيم، قال ذلك لعظيم رحمته، وفرط رأفته عليه السلام، وقبل أن يعلمه الله تعالى أنه لا يغفر الشرك.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ «أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم تَلَا قَوْلَ اللهِ عز وجل فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ الْآيَةَ. وَقَالَ عِيسَى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ، أُمَّتِي أُمَّتِي وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عز وجل يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه الصلاة والسلام، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ».[1]

١ – رواه مسلم–كتاب الإيمان، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأمته وبكائه شفقة عليهم، حديث رقم: ٢٠٢

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٣٧

وقال براهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ.....﴾، ومن هنا للتبعيض أي: أسكنت بعضَ أولادي، وهو إسماعيلُ مع أمِّه هاجر، وأسكنتُ؛ أي: جعلتُه ساكنًا.

وقوله: ﴿بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾، هو وادي مكَّةَ، والوادي: سفحُ الجبلِ، ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾، يعني: الكعبة بيت الله الحرام، وكان الله قد أطلعه أنه يبني له في هذا الموضع بيتًا هو وابنه إسماعيل عليه السلام، والإضافةُ إلى اللهِ تعالى للتَّشريف، وقيل له: مُحَرَّمٌ؛ لأنّ الله حرم التعرض له والتهاون به، وجعل ما حوله حرما لمكانه، أو لأنه لم يزل ممنعًا عزيزًا يهابه كل جبار.

وقال إبراهيم ذلك حين أتى بهاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام، بأمر الله تعالى، وتركهما في موضع البيت، وقفى راجعًا، ثم وقف حيث لا يرونه بدعا بهذا الدعاء.

عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ: نَعَمْ قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعَنَا ثُمَّ رَجَعَتْ فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ حَتَّى بَلَغَ يَشْكُرُونَ».[1]

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾.

١ - رواه البخاري- كتاب أحاديث الأنبياء، بَابٌ ﴿يَزِفُّونَ﴾: النَّسلانُ فِي المشيِ، حديث رقم: ٣٣٦٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أي: أسكنْتُهم به ليقيموا الصَّلاةَ عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك.

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾.

عدي الفعل: ﴿تَهْوِي﴾، بحرف الجر إلى لأنه ضُمِّنَ معنى تنزع، والمعنى: فاجعل أفئدة من الناس تنزع وتسرع نحوهم شوقًا إليهم، قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: تَنْزِعُ إليهم.

قال السدي: خذ بقلوب الناس إِلَيْهِمْ، فإنه حيث يهوى القلب يذهب الجسد، فلذلك ليس مِنْ مؤمن إلا وقلبه معلق بحب الكعبة.

ومن في قوله: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾، للتبعيض والمراد بهم المؤمنون.

﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

أي: التي تجلب إليهم ليكون ذلك عونًا لهم على طاعتك، وقد استجاب الله تعالى دعاء خليله عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾.[1]

١ - سورة القصص: الآية/ ٥٧

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٣٨، ٣٩

هذا ثناء من خليل إبراهيم على ربه تبارك وتعالى يقول فيه: ربنا إنك تعلم ما نُضمِر وما نُظهِر.

﴿وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾.

أي: وما يخفى على الله تعالى من شيء في الأرض ولا في السماء مهما صغر حجمه، وخفي على الأنام جرمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾.[1]

قيل: هذا اعتراض بين كلام إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وقيل: هو من تمام كلام إبراهيم صلى الله عليه وسلم.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ﴾.

ولد إسماعيل وإسحاق عليهما السلام بعد ما بلغ إبراهيم من الكبر عتيًّا؛ كما قال تعالى: ﴿قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.[2]

وليس في تعيين سن إبراهيم عليه السلام عند ولادة إسماعيل وإسحاق أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم، فلا فائدة من البحث في ذلك.

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ﴾.

إخبار عن إجابة الله تعالى دعاء من دعاه، وقد دعاه الخليل بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، فاستجاب الله تعالى له، وهو تقديم بين يدي حاجته في دعائه الذي تقدم منه في

١ - سورة يونس: الآية/ ٦١

٢ - سورة الحجر: الآية/ ٥٣، ٥٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ.....﴾؛ كما قال زكريا عليه السلام: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]، أي: تعودت الإجابة كلما دعوتك.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٤٠، ٤١

يقول الخليل إبراهيم عليه السلام: ربِّ اجعلني مِمَّن يحافظ على الصَّلاةِ ويُقِيمُها بحدودها وأركانها وشروطها وواجباتها، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾؛ أي: وَاجعَل من ذريتي من يُقِيمُونَ الصَّلَاة ويؤدونها كما أمرتنا، و (من) هنا التبعيض لعلمه أنه سيكون في ذريته كفار.

﴿رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ﴾.

أي: واستجب دعائي ربنا دعائي، وتحتمل وتقبل عبادتي؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَاّ أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨، ٤٩]، وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]؛ أي: فاعبدوه.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ﴾.

دعا لوالديه قبل أن ينهاه الله عن الاستغفار لأبيه والبراءة منه، لما تبينت له عداوته، وفيه دليل على البدء بالنفس في الدعاء، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ﴾، أي: واغفر لجميع المؤمنين يوم القيامة، يوم تحاسبهم على أعمالهم، فتجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً».[1]

١ – رواه الطبراني في مسند الشاميين– حديث رقم: ٢١٥٥، بسند حسن

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٤٢، ٤٣

يقولُ الله تعالى لنبيّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، أي: لا تَحْسَبَنَّ يا محمدُ أنَّ اللهَ تعالى ساهيًا عما يَعْمَلُ هؤلاء المشركون من قومِك، من الإعراض عن دين الله تعالى، والصدِّ عن سبيله، وتكذيبك فيما جئتهم به من الوحي، بل هو عالمٌ بهم وبأعمالِهم.

والغفلةُ: سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ [ق: ٢٢]؛ أي: لقد كنت ساهيًا عما خلقت له، ذاهلًا عما تؤول إليه عاقبة أمرك.

﴿إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ﴾.

أي: يؤخِّرُ الله تعالى جزاءهم ليوم القيامة ذلك اليوم الذي ترتفعُ فيه أبصارُهم مفتوحة لا تتحرك من شدة الحيرة والذهول لهول ما يرونه.

قال الفراء. يقال: شخص الرجل بصره وشخص البصر نفسه إلى السماء من هول ما يرى.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ﴾.

مهطعين أي: مسرعين، ومنه قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٨]، أَي: مُسرِعين، ومنه:

بِدَجْلَةَ دَارُهُمْ وَلَقَدْ أَرَاهُمْ ***** بِدَجْلَةَ مُهْطِعِينَ إِلَى السّماع

أَي: مُسرِعين، يُقَال: أهطعَ الْبَعِير فِي سيره إِذا أسْرع.

وَقَالَ أَبُو عُبَيدَة: أهطع وهَطَع، إِذا أسرعَ مُقبلا خَائفًا، لَا يكون إِلَّا مَعَ خوف.

وقيل: المهطع: الذي ينظر في ذل وخشوع.

﴿مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ﴾ إقناع الرأس: رفعُه؛ أي: رافعيها حتى لا يبصروا مواضع أقدامهم؛ قال ابن عباس ومجاهد: رافعي رؤوسهم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ﴾.

أي: مُدِيمي النظرِ لا تطرف أبصارهم لعظم من يرونه من الأهوال، ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ﴾، أي: وقلوبهم خاوية خالية لا تعي شيئًا ولا تعقلُ مِن شدةِ الوجل والخوف.

ووحَّدَ الطَّرْفَ لأنَّه في الأصلِ مصدرٌ؛ يقال: طَرَفَ ببصرِهِ يطرُفُ طَرْفًا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (٤٦) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٤٤- ٤٧

يقولُ الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: وأَنْذِرْ يا محمدُ الناسَ جميعًا يوم القيامة، وما فيه من الأهوال العظام فإنه اليومَ الذي يحقُّ فيه عذابُ اللهِ لمن كفر به وكذب رسله عليهم السلام، والألف واللام في لفظ الناس للعموم، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَاّ هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.[1]

﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾.

فيقول الذين كفروا بالله عند الاحتضار ربنا أمهلْنا مدَّةً، نجب دعوتك للإيمان، ونتبع الرسل الذين أعرضنا عنهم، واستكبرنا عن إجابتهم؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ﴾.[2]

ويقولون ذلك يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.[3]

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوالٍ﴾.

في الكلام حذف اختصار تقديره: فيُقالُ لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ.....﴾، دل عليه سياق الكلام.

---

١ - سورة الأعراف: الآية/ ١٥٨

٢ - سورة المؤمنون: الآية/ ٩٩، ١٠٠

٣ - سورة الزمر: الآية/ ١٥٨

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أي: أولم تقسموا من قبل ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، وأنه لا بعث ولا نشور، ولا ثواب ولا عقاب؛ كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨]، وكان مشركوا مكة دهريين، يقولون: إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقالُوا إِنْ هِيَ إِلَاّ حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.[1]

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

مازال الخطاب لأولئك الذين الظالمين المكذبين المشركين، الذين ﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ﴾، يوم القيامة، الذين أَقْسَموا في الدنيا أنهم مَا لَهم مِن زَوالٍ، وأنه لا تستطيع قوة أن تنال منهم، يقال لم وقد سلبوا كل شيء، ووقفوا بين يدي الله تعالى يوم القيامة حفاة عراة غرلًا، وقد غشيهم الذل، وعلتهم الكآبة والحزن والهم والغم، من المصير المحتوم، يقال لهم: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، بالكفر بالله تعالى، والصد عن سبيله وتكذيب رسله عليهم السلام.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ﴾.

وظهر لكم كيف أهلكناهم بطغيانهم، وتجبرهم، وكفرهم بالله تعالى.

﴿وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ﴾.

بَيَّنا لكم العِبَرَ فلم تعتبِروا، وأَن مثلكُمْ كمثلهم في الكفر، وأن حكمكم كحكمهم في الهلاك والعذاب.

قال ابن عباس: يريد الأمثال التي في القرآن.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ﴾.

أَي: وقد كَادُوا كيدهم، ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾؛ أَي: عِنْد الله جَزَاء مَكرِهم، ﴿وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ﴾؛ أي: وإنْ بلغ مكرُهُم مبلغًا بحيثُ تزولُ منه الجبالُ، فأبطل الله كيدهم، وكفى المؤمنين مكرهم.

١ – سورة الأنعام: الآية/ ٢٩

﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ﴾.

أي: فلا تظن أن الله تعالى يُسلم رسله وأوليائه لأعدائه، ويخلفهم وعده لهم بالنصر والتمكين في الأرض، وهذه الآية كقوله تعالى: مثلُ قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾، لا يغالب، ﴿ذُو انتِقامٍ﴾، ذو انتقام ممن كفر به، وكذب رسله.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (٤٩) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (٥١) هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾. سورة إبراهيم: الآية/ ٤٨ - ٥٢

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ....﴾، متعلق بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ﴾؛ والمعنى: إن الله تعالى في هذا اليوم: ﴿يَوْمَ تبَدَّل الأَرْض غَيْرَ الأَرْضِ....﴾؛ كما قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حكاية عن أولي العزم من الرسل يوم القيامة: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ».[1]

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ﴾، دليل على أنها غير الأرض المعهودة، أرض بيضاء عفراء لم يعص الله فيها، ولا سفك فيها دم، وليس فيها معلم لأحد؛ فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لِأَحَدٍ».[2]

وهي الساهرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤]؛ فعن سهد بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ قَالَ: أَرْضٌ بَيْضَاءُ عَفْرَاءُ كَالْخُبْزَةِ مِنَ النَّقِيِّ.[3]

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ قَوْلِهِ عز وجل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾، فَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: عَلَى الصِّرَاطِ».[4]

---

١ - رواه البخاري- كتاب التفسير، سورة بني إسرائيل، باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، حديث رقم: ٤٧١٢، ومسلم-كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم: ١٩٤

٢ - رواه مسلم- كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة، حديث رقم: ٢٧٩٠

٣ - رواه ابن أبي حاتم- حديث رقم: ١٩١١٩، وابن أبي داود في البعث- حديث رقم: ٢١

٤ - رواه مسلم- كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة، حديث رقم: ٢٧٩١

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

أي: وظهَروا للهِ تعالى المتفردِ بالربوبيةِ، الذي قَهَرَ كُلَّ شيءٍ بعظمته وكبريائه؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ﴾.[1]

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ﴾.

المراد بالْمُجْرِمِينَ هنا الكفار، وحيث أطلق الإجرام في القرآن فالمراد به الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩]، أي وترى الكفار الذين أجرموا بعبادة غير الله تعالى، والشرك به يوم القيامة ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ﴾، مشدودين بعضهم إلى بعض، يقال: قرنت الشيء بالشيء إذا شددته معه في رباط واحد ﴿فِي الْأَصْفادِ﴾، يعني في الأغلال.

قال ابن عباس: يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة.

وقال ابن زيد: قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال.

﴿سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ﴾.

السَرَابِيلُ: جمع سِرْبال، وهو القميص، أي: وجعلت سرابيلهم من قطران، يُطلَونَ به، فيصيرُ كاللِّباسِ لهم؛ لأنه أبلغ في اشتعال النار في جلودهم، وكان ابن عباس يقول: القَطران هو: النحاس المذاب.

﴿وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾.

أي: وتُغَطِّي وجوههم النار، فتشتعل النَّارُ في كلِّ أبدانِهم، وذكر الوجه لأنه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه، وألم الإحراق فيه أشد منه في غيره؛ لذلك يقي الإنسان وجهه بيده، وهذه الآية كقوله تعالى: كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾.[2]

---

١ - سورة الحاقة: الآية/ ١٨

٢ - سورة المؤمنون: الآية/ ١٠٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾.

أي: يفعلُ اللَّهُ ذلك بهم جزاءً لهم على كفرهم وسوء فعالِهم، لا ظُلْمًا عليهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾.

لأنه تعالى لا يعزب عن علمه شيء.

﴿هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾.

أي: هذا القرآن بلاغ للناس جميعًا ﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ أي: ليتعظوا به، ويحتمل أن يكون إشارةً إلى جميع ما في السُّورة من العِظَةِ والتَّذكير، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه إله واحد لا إله إلا هو ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾؛ أي: ذوو العقول فيَرتدِعوا عما فيه هلاكهم.

تم تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولله الحمد والمنة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفهرس

م	المحتويات	الصفحة
١	المقدمة.	٣
٢	تفسير سورة يوسف. ﴿وما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	٤
٣	﴿وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ﴾.	٦
٤	﴿قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ﴾.	٨
٥	﴿قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾.	١٠
٦	﴿وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾.	١٢
٧	﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ﴾.	١٤
٨	﴿قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾.	١٦
٩	﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ﴾.	١٧
١٠	﴿قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ﴾.	١٩
١١	﴿ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا﴾.	٢١
١٢	﴿قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ﴾	٢٣
١٣	﴿قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا﴾.	٢٥
١٤	﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.	٢٦
١٥	﴿فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾.	٢٨
١٦	﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ﴾.	٣٠
١٧	﴿وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.	٣٣
١٨	﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.	٣٦

شبكة الألوكة - قسم الكتب

١٩	﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَاّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾.	٣٨
٢٠	﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا﴾.	٣٨
٢١	**تفسير سورة الرعد**	٤٤
٢٢	﴿المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾.	٤٤
٢٣	﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً﴾.	٤٧
٢٤	﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.	٤٩
٢٥	﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾.	٥١
٢٦	﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ﴾.	٥٣
٢٧	﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.	٥٥
٢٨	﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ﴾	٥٨
٢٩	﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَاّ كَباسِطِ﴾.	٦٠
٣٠	﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾.	٦٢
٣١	﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ.....﴾	٦٤
٣٢	﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً﴾.	٦٦
٣٣	﴿لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى.....﴾.	٦٨
٣٤	﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾.	٧١
٣٥	﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾.	٧٤
٣٦	﴿كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ.....﴾.	٧٦
٣٧	﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى﴾.	٧٨
٣٨	﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾.	٨٠
٣٩	﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾.	٨٢
٤٠	﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها﴾.	٨٤

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٤١	﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ مَا جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.	٨٧
٤٢	﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾.	٨٩
٤٣	﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾.	٩١
٤٤	**تفسيرُ سورةِ إبراهيمَ**	٩٣
٤٥	﴿الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.	٩٣
٤٦	﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾	٩٦
٤٧	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾.	٩٨
٤٨	﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ﴾.	١٠٠
٤٩	﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾	١٠٢
٥٠	﴿قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾.	١٠٤
٥١	﴿قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ﴾.	١٠٦
٥٢	﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا﴾.	١٠٨
٥٣	﴿مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ﴾.	١١٠
٥٤	﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ﴾.	١١٢
٥٥	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾.	١١٤
٥٦	﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾.	١١٥
٥٧	﴿وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾	١١٦
٥٨	﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾.	١١٨
٥٩	﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ﴾.	١١٩
٦٠	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ﴾.	١٢٢
٦١	﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.	١٢٤
٦٢	﴿قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾.	١٢٥

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٦٣	﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾.	١٢٨
٦٤	﴿رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾	١٣٠
٦٥	﴿رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.	١٣٢
٦٦	﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.	١٣٤
٦٧	﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾	١٣٦
٦٨	﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾.	١٣٩
٦٩	الفهرس.	١٤٢